مسلم يبحث عن اليقين

أسماء موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

ملحوظة: الفهرس تفاعلي، يمكنك الضغط على اسم العنوان للانتقال مباشرة إلى صفحته.

مقدمة

بين الحين والآخر، قد تتسلل إلى عقولنا أسئلة مفاجئة، وخواطر لم نستدعها، فتثير في داخلنا شيئًا من التردد أو الحيرة تجاه حقيقة يقيننا في اعتقاداتنا.

قد تكون هذه التساؤلات حول بعض التشريعات في الإسلام، أو حول شبهة سمعها الإنسان ولم يجد لها جوابًا يطمئن قلبه، أو ربما حول مقارنةٍ بين الأديان، وتساؤلٍ عابر: هل يمكن أن يكون هناك دين آخر هو الأحق بالاتباع؟

بل قد تتجاوز الأسئلة ذلك أحيانًا لتصل إلى التساؤل عن حقيقة وجود إله من الأساس.

ربما مرّت بك مثل هذه الخواطر من قبل..

فآثرت الصمت، وأغلقت عليها أبواب عقلك؛ خشية أن يُساء الظن بإيمانك.

لكن الحقيقة أن ورود هذه الأسئلة ليس عارًا، بل قد تكون دليلاً على حيوية إيمانك وقوته؛ فاللص لا يطرق باب بيتٍ خاوٍ، وإنما يحوم الشيطان حول القلب العامر ليُفسد ما فيه.

هي تجربة يمر بها الكثيرون، حتى من هم على درجة عالية من الصلاح والالتزام.

غير أن الفارق الحقيقي لا يكمن في مجيء السؤال...

وإنما في طريقة التعامل معه:

فهناك من يُؤثر التجاهل فيترك هذه الأفكار دفينة عقله بلا معالجة حتى تتراكم.

وهناك من يسعى ويجتهد للبحث عن إجابات تُرَسِّخ اليقين في قلبه.

ومن عتبة هذا الاختيار الواعي بالبحث وعدم التجاهل..

ننطلق معًا في صفحات هذا الكتاب؛ لنبدأ رحلة استكشاف الردود على تلك الأسئلة الوجودية والعقدية، في خطوةٍ لا تستهدف فقط من يعاني "الشك"، بل هذه الرحلة لكل مسلم يريد الترقي في مراتب الإيمان. فاليقين ليس محطة نهائية،

بل رحلة صعود لا تنتهي..

وفي أولى خطوات هذه الرحلة، نستلهم درسًا بليغًا من خليل الله إبراهيم – عليه السلام –؛ فحين طلب أن يرى كيف يحيي الله الموتى، لم يكن ذلك شكًا في القدرة، بل كان رغبةً في الترقي والانتقال من **يقين الخبر** إلى **يقين المشاهدة**، حين قال:

﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [سورة البقرة: 260].

إن بحثك عن الدلائل ليطمئن قلبك هو سُنَّة نبوية كريمة؛ وقد طمأننا النبي ﷺ حين قال:

(نحنُ أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهيمَ)[1]،

ليرفع الحرج عن قلوبنا ويخبرنا أن البحث عن الطمأنينة هو قمة العبودية، والخطوة الأولى لتجذير الإيمان حتى نصل لمقام الإحسان: **(أن تَعبُدَ اللهَ كَأنَّك تَراه)**[2].

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه البخاري.

فلسفة الجذور

لماذا نحتاج لليقين الآن؟

تأمل الأشجار في طريقك؛ لماذا تصمد شجرة عملاقة أمام إعصار عاتٍ بينما تقتلع ريحٌ بسيطة شجرة أخرى؟

السر ليس في ضخامة الجذع، بل في تلك الجذور الممتدة في أعماق الأرض.

اليقين هو **جذر** قلبك؛ الذي لا يراه الناس،

لكنه وحده من يجعلك تقف ثابتًا حين تضطرب الحياة وتتلاطم أمواج الفتن.

و نحن اليوم نعيش زمن الفتن الملونة التي تصلك وأنت في هدوء غرفتك عبر شاشة هاتفك.

لم يعد كافيًا اليوم أن نكون مسلمين **بالتبعية** أو **بالوراثة**؛

فقد تحولت الرياح إلى أعاصير، ولا عاصم اليوم إلا بجذورٍ تضرب في أعماق الحق.

ماذا نخسر حين يضعف اليقين؟

غياب اليقين الراسخ ليس مجرد نقص معلومات، بل هو خسارة تظهر آثارها في مجالاتٍ شتى من حياتنا، أبرزها:

• التخبط في فهم القدر: بدون يقين، ستتحول أحداث الحياة إلى ألغاز مؤلمة. سيتساءل المرء:

"أين الرحمة في آلام المستضعفين؟"

أو "لماذا لم يستجب الله دعائي؟".

صاحب اليقين وحده هو من يرى الحكمة خلف الألم.

• فقدان المحرك الداخلي: فكلما زاد اليقين، اشتعل وقود العمل والطاعة.

• الانبطاح الحضاري: حين يضعف اليقين، نبدأ بالخجل من هويتنا ونلهث خلف قشور الحضارات الأخرى.

اليقين يعطيك العزة لتكون **أصلاً** لا نسخة.

• العجز عن تثبيت الأبناء: عندما يسألك ابنك بفضول:

"لماذا الإسلام هو الحق؟"، فإنه لا ينتظر ردًا باردًا أو تخويفًا، بل ينتظر منطقًا يقنع عقله ويُطَمئن قلبه.

فإذا كان ردك غير مقنع، فأنت تتركه فريسة لصناع المحتوى المحترفين الذين يغلفون الإلحاد والشك في إطار مشوق.

اليقين ليس لك وحدك، بل هو **حصنٌ حصين** تحمي به عائلتك ومن حولك من الضياع.

- الاضطراب في أهم مواطن الثبات: إن غياب اليقين لا يهدد دنيانا فحسب، بل يمتد لأخطر اللحظات التي يواجهها الإنسان وحده؛ لحظة الاحتضار، وفتنة الممات، وسؤال القبر.

هناك.. حيث لا ينطق اللسان بما حفظه العقل بالوراثة، بل يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت.. هناك ينطق **الجذر** وتتحدث **أعماق القلب**.

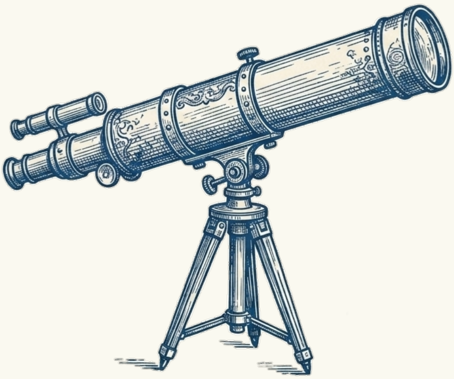
لذلك.. حان وقت المواجهة الشجاعة مع النفس؛ لنقتلع جذور الحيرة، ونـحرر أرواحنا من وطأة التردد، لنصل إلى الحقيقة التي يستريح إليها العقل، ويطمئن في رحابها القلب.

هل تذكر موقفًا مررت به جعلك تشعر أن جذور يقينك ليست بالقوة التي كنت تظنها، وأنها بحاجة إلى تقوية؟

هذه مساحتك الخاصة، تفضل بتدوين ما تريد:

الفصل الأول

هل للكون "خالق"؟



(حوار هادئ مع العقل والمنطق)

نبدأ رحلتنا من **نقطة الصفر**..

وكأننا جئنا هذا العالم لا نعلم شيئًا. لنقف أمام الكون الفسيح متسائلين:

هل نحن هنا بمحض الصدفة؟

أم أن خلف هذا الستار العظيم موجدًا وخالقًا؟

ولكي تكون الإجابة منصفة، سنحتكم هنا إلى **المنطق والبديهة**؛ فهي اللغة الفطرية التي يفهمها الجميع بلا استثناء.

1. قانون السببية: فطرة لا تُخطئ

هناك مبدأ عقلي بديهي لا يختلف عليه اثنان في هذا العالم، يُسمى في الفلسفة والعلوم بـ **"قانون السببية"**؛ ومفاده ببساطة:

أن لكل حدثٍ سببًا، ولكل صنعةٍ صانعًا.

هذا القانون ليس فكرًا معقدًا نتعلمه في بطون الكتب، بل هو **غريزة** أصيلة تُولد معنا.

فلو قيل لطفلٍ صغير يطلب الطعام من والدته:

"اجلس هنا، والساندوتش سيصنع نفسه في المطبخ، ثم يأتي إليك"

فلن يقتنع وسيرفض الفكرة تمامًا!

فإذا كان عقل الطفل يدرك بفطرته أن العدم لا يخلق شيئًا، فكيف يقبل عقل المثقف أن هذا الكون، بكل مجراته وثقوبه السوداء و مخلوقاته، قد صنع نفسه بنفسه أو جاء من **فراغ**؟

2. أسطورة آيفون الصحراء: (هل تصنع الفوضى نظامًا؟)

تخيل أنك تمضي في تيهِ صحراءٍ قاحلة، حيث لا أثر لحيّ، ولا صوت إلا لصفير الريح بين الكثبان.

وفجأة، وسط هذا الصمت الرملي الممتد، وقع بصرك على شيءٍ غريب:

جهاز آيفون من أحدث طراز، يلمع تحت أشعة الشمس، شاشته سليمة، وبطاريته ممتلئة، وتطبيقاته تعمل بمنتهى الدقة والسرعة.

سألت رفيقك في الرحلة بدهشة:

"من الذي أضاع هذا الجهاز هنا؟".

فأجابك بهدوءٍ:

"لم يضعه أحد! ولم يأتِ به أحد إلى هنا من الأساس! بل وُجد هنا بفعل الصدفة المحضة.

فعبر ملايين السنين، هبت الرياح، وصهرت حرارة الشمس معادن الأرض، ثم جاءت صاعقة برق، فرتبت الذرات لتُشكِّل الشاشة، والمعالج، ونظام التشغيل (iOS)..حتى تكوَّن هذا الجهاز تلقائيًا كما تراه!".

هل يمكن لعاقلٍ أن يصدق مثل هذا التفسير؟

بالطبع لا؛ فالعقل الإنساني يرفض غريزيًا أن تولد الدقة من رحم العشوائية.

وإذا كان منطقك الفطري يستبعد وبشدة وجود آيفون بلا صانع، فكيف يقبل ذات المنطق أن هذه المجرات الهائلة، والذرات المتناهية، والنظم الحيوية المذهلة، قد وُجدت بلا خالقٍ عظيم؟ إن الذي يرفض صدفة الآيفون هو نفسه الذي يوقن يقينًا جازمًا باستحالة وجود هذا الوجود بلا موجد.

3. فقط ستة أرقام: (من الخلق إلى الإحكام)

الأمر لا يتوقف عند مجرد الخلق، بل يمتد إلى ذلك الإحكام المذهل الذي يقوم عليه بقاء الكون واستمرار الحياة. فالكون لا يسير في فوضى عمياء، وإنما تحكمه قوانين دقيقة وثوابت فيزيائية محسوبة بإتقان بالغ.

ويشير العالم الشهير مارتن ريس في كتابه (فقط ستة أرقام)[1] إلى أن هناك عددًا من الثوابت الكونية لو تغيّر أحدها تغيرًا طفيفًا للغاية – زيادةً أو نقصانًا – لما وُجدت النجوم، ولا الكواكب، ولا وُجد الإنسان أصلًا.

فلو كانت الجاذبية أضعف قليلًا، لما تجمعت المادة لتكوين النجوم والكواكب، ولو كانت أقوى قليلًا، لانكمش الكون أو احترقت النجوم بسرعة لا تسمح بظهور الحياة.

إنها دقةٌ مذهلة تجعل الكون أشبه بمنظومةٍ محكمة الضبط؛ بحيث إن أي خلل يسير في هذه القيم كان كفيلًا بتحويل الوجود كله إلى فوضى لا تسمح بالحياة أن تبدأ من الأساس.

---

(1) مارتن ريس، فقط ستة أرقام: القوى الأساسية التي تشكل الكون، (Martin Rees, Just Six Numbers)، دار ويندنفيلد ونيكولسون، 1999.

ولتقريب الصورة أكثر، سأضرب لك مثالاً يسيرًا:

تخيل لو دخلت غرفة ووجدت بطاقات مبعثرة على الطاولة، مطبوعًا عليها حروف الأبجدية كاملة بشكل عشوائي.

خرجتَ من الغرفة ثم عدت، فوجدت 9 بطاقات منها قد اصطفت بدقة متناهية جنبًا إلى جنب لتُشكل جملة:

"رمضان كريم".

ولم يتوقف الأمر عند جمال التنسيق..

بل صادف أن ذلك اليوم هو بالفعل أول أيام شهر رمضان!

هل يمكن لعاقل أن يصدق أن ريحًا عابرة تسللت من النافذة، وحركت البطاقات "**صدفة**" لتهبط في أماكنها الصحيحة، لتعطي معنىً مفهومًا، وتتوافق مع توقيت زمني دقيق؟

مستحيل..

لأن ترتيب الحروف لتعطي (**معنى**)، وربط المعنى بـ (**مناسبة**)، يتطلبان بالضرورة قَصدًا وإرادة وتنظيمًا مسبقًا.

هكذا هو حال **الثوابت الكونية**؛ إنها ليست مجرد أرقام صماء، بل هي بطاقات رُصت بعناية فائقة لتعطي للكون معنى وتجعل الحياة فيه ممكنة.

فالعقل الذي يرفض تصادف ترتيب تسع بطاقات، هو أولى بأن يقر باستحالة ثبات المتغيرات الكونية الجبارة طوال هذه المليارات من السنين بلا مُدبّر حكيم يضبط إيقاعها.

والنتيجة النهائية التي تفرض نفسها هنا كقاعدة ذهبية لا غبار عليها، هي:

أن إيجاد هذا الكون بكل هذه الدقة البالغة، مع استمرار بقائه طيلة هذه السنوات، يستحيل عقلاً وعِلمًا أن يكون بلا خالقٍ وموجدٍ له.

فمن غير المنطقي – بل من قبيل الهذيان الفكري – أن نقبل فكرة أن هذا الوجود قد جاء نتيجة صدفة عابرة.

والخلاصة الحاسمة: أنَّ لهذا الكون موجدًا وخالقًا..

وإثبات وجوده ليس مجرد أمر عاطفي أو تسليم إيماني فقط، بل هو حقيقة مطلقة، **مثبتة بصرامة العلم، ومؤيدة ببداهة المنطق.** لكن عند هذه النقطة يظهر سؤال جديد:

إذا كان العقل قد قادنا إلى الإقرار بوجود خالق لهذا الكون، فهل يمكن أن يخبرنا أيضًا بشيء عن صفات هذا الخالق؟

هذا ما سنناقشه في الفصل القادم.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

بعد هذه المرحلة من التأمل العقلي والمنطقي، هل تستطيع أن تشرح لشخصٍ ينكر وجود الخالق لماذا ترى أن وجود هذا الكون لا يمكن أن يكون وليد الصدفة؟

الفصل الثاني

ما صفات الخالق التي يدلّنا عليها العقل؟



بعد أن تأملنا في الفصل السابق دلائل وجود الخالق، وما يكشفه هذا الكون من إحكامٍ وإتقان، يبقى أمامنا سؤالٌ تفرضه الفطرة والعقل معًا:

ما الصفات التي تدل عليها آثار هذا الخلق البديع؟

فالتأمل في هذا الكون الهائل لا يدلّنا فقط على وجود خالق، بل يكشف لنا شيئًا من صفاته كذلك.

أولاً صفة القوة المطلقة:

تأمل الطاقة المنبعثة من شمس واحدة، أو انفجار ثقب أسود، أو حركة المجرات الهائلة..

العقل يقر بقاعدة بسيطة: **فاقد الشيء لا يعطيه**.

فمن منح الكون كل هذه القوى والسرعات والطاقات، يستحيل أن يكون عاجزًا أو محدود القدرة. بل لا بد أن يكون متصفًا بقدرة عظيمة لا يعجزها شيء، قدرة تدبّر أصغر ذرة كما تدبّر أعظم مجرة.

ثانيًا صفة التدبير:

هذا الخالق لم يخلق الكون ثم يتركه مهملًا، بل هو مدبّرٌ لشؤونه، قائمٌ على حفظ نظامه منذ لحظة الخلق وحتى الآن.

فلو أن مهندسًا أنشأ مصنعًا ضخمًا ثم تركه بلا إدارةٍ أو متابعة، لما استمر طويلًا قبل أن يعمّه الخلل والاضطراب.

فكيف بهذا الكون الهائل الذي يسير بهذا الانتظام المذهل منذ آلاف السنين؟

إن ثبات قوانين الكون، وانتظام حركة الأفلاك، وتعاقب الليل والنهار، وشروق الشمس في موعدها دون اضطراب.. كل ذلك يشهد بأن لهذا الكون مدبّرًا حكيمًا يرعى خلقه ويحفظ نظامه في كل لحظة.

ثالثًا صفة الغِنى والصمدية **(المنزه عن الاحتياج):**

من خلال تأملنا نستطيع إدراك أن خالق هذا الكون لا يحتاج إلى شيء.

لا يحتاج إلى طعام أو شراب أو زواج أو ذرية؛ لأنه كان موجودًا قبل وجود المادة نفسها.

ولو افترضنا – جدلًا – أنه يحتاج إلى شيء، فكيف وُجد قبل أن يخلق ما يحتاج إليه؟

إن الاحتياج صفة المخلوق، أما الخالق فـ **غنيٌّ بذاته**.

رابعًا صفة الحياة:

كيف يكون واهب الحياة فاقدًا لها؟

إن الذي يهب الحياة للمخلوقات، وينفخ الروح في الأجساد، لا يمكن إلا أن يكون حيًّا حياةً كاملة، لا يعتريها فناء ولا ضعف ولا نقص.

فالحياة التي نراها في هذا الكون، بكل صورها وتعقيدها، ليست إلا أثرًا من آثار الخالق الحي.

خامسًا صفة العلم والحكمة:

هذا الكون بُني بدقة مذهلة، ونِسَب محسوبة، واتساق محكم لا يختل.

ولا يمكن لعقل منصف أن يتصور أن هذا الإتقان قد وُجد بغير علمٍ محيط وحكمةٍ بالغة.

فالدقة التي رأيناها في الثوابت الكونية، والتعقيد الهائل في الشفرة الوراثية (DNA)، لا يمكن أن يصدر عن صدفة عمياء أو إرادة جاهلة.

إن كل زاوية في هذا الكون تصرخ بأن من وضع قوانينه هو عليم بكل التفاصيل، حكيم يضع كل شيء في موضعه الصحيح ولغاية مقصودة.

سادسًا صفة الوحدانية:

من خلال تأملنا للكون نستطيع إدراك أن هذا الخالق لا يمكن أن يكون إلا **واحدًا**.

فالكون لا يحتمل تعدد الآلهة؛ لأن تعدد مراكز القرار يؤدي بالضرورة إلى الفوضى.

ولو تعددت القوى بلا منسّق لانعدم التوازن.

فوجود نظام دقيق بين قوى مختلفة لا بد له من منظِّم واحد يضع القوانين ويضبطها.

وكما لا يُعقل أن يكون لفريق كرة قدم أكثر من مدير فني، ولا أن تُدار المعركة بأكثر من قائد أعلى...

كذلك لا يُعقل أن يُدار الكون بأكثر من خالق.

سابعًا صفة الأولية والأزلية:

من خلال تأملنا للكون نستطيع إدراك أن هذا الخالق هو **الأول** الذي لا يسبقه شيء؛ فالوجود لا يمكن أن يكون سلسلة من الأسباب لا بداية لها.

فلو كانت كل الأشياء تحتاج إلى سبب قبلها، ثم سبب قبل ذلك، ثم سبب قبله إلى ما لا نهاية... فلن يبدأ شيء أصلًا، ولن يوجد الكون الذي أمامنا الآن.

وهنا يجدر بنا الالتفات إلى ملاحظة مهمة:

أن علماء الفيزياء والرياضيات اليوم، يجزمون علميًا بنماذجهم الكونية – وعلى رأسها نموذج الانفجار العظيم (Big Bang)[1] – بأن الكون ليس أزليًا، بل إن له بداية زمانية ومكانية محددة (نقطة صفر للزمكان والمادة). وطالما أن العلم الحديث أثبت بالدليل التجريبي أن للكون بداية، فإنه **حادث**، وبداهة العقل والمنطق تقر بأن **كل حادثٍ لا بد له من مُحدث**.

وعليه، فإثبات بدايةٍ للكون يعني بالضرورة وجودَ مُوجدٍ خارج إطار هذا الكون وخارج قوانين الزمان التي تحكمه.

---

(1) للاستزادة حول نموذج الانفجار العظيم، يُراجع:

.Peebles, P. J. E. (1993). Principles of Physical Cosmology. Princeton University Press

وهنا، يطرح العقل المتشكك سؤاله الشهير:

"إذا كان لكل شيء خالق، فمن خلق الله؟".

لكن الحقيقة أن هذا السؤال مبني على افتراض خاطئ؛ لأننا لم نقل أصلًا:

"كل شيء له خالق"،

بل نقول:

"كلُّ حادثٍ أو مخلوقٍ لا بد له من خالق".

أما الخالقُ نفسه فلا يمكن أن يكون مخلوقًا؛ لأنه لو كان كذلك لاحتاج إلى خالقٍ آخر، ثم يحتاج ذلك الخالق إلى غيره، وهكذا ندخل في سلسلةٍ لا تنتهي دون أن نصل إلى تفسيرٍ حقيقي لوجود الأشياء.

ولتبسيط الفكرة، تأمل هذه الأمثلة:

- **مثال الجندي:** تخيل جنديًا في معركة صدر له أمر بإطلاق النار، فقال:

لا أستطيع أن أُطلق النار من تلقاء نفسي، بل لا بد أن أتلقى الأمر من القائد الذي فوقي.

فذهبنا للقائد، فقال:

"لا أستطيع أن آمره حتى يأذن لي القائد الذي فوقي"

وهكذا في سلسلة لا تنتهي.. هل ستُطلق رصاصة واحدة؟

بالطبع لا!

لن تُطلق النار أبدًا إلا إذا انتهت هذه السلسلة إلى قائدٍ هو **بداية السلسلة**، يملك حق الأمر ولا ينتظر أمرًا من أحد فوقه.

• **مثال الثريا:** لو رأيت ثريا (نـجفة) ضخمة متدلية بحبل طويل جدًا يمتد للأعلى حتى يغيب عن بصرك؛ فإن بداهة عقلك توقن بوجود **سقف ثابت** في النهاية تتدلى منه هذه الثريا، وإلا لسقطت وسقط الحبل معها.

كذلك هذا الكون لا بد أن تنتهي سلسلة وجوده إلى أصل ثابت قائم بذاته، لا يعتمد على غيره.

لذلك يوقن العقل بضرورة وجود "أول" ليس قبله شيء، **خالقٍ** غير مخلوق، أزليٍّ لا بداية له.

ولهذا فسؤال "من خلق الخالق؟" يشبه تمامًا سؤال: "من خَبَزَ الخبّاز؟".

كلا السؤالين لا يصح؛ لأن الخباز إنسان، وصفة الخَبز لا تُعمم على جنس البشر (فهو الذي يقوم بالفعل ولا يقع عليه الفعل في ذات الوقت).

كذلك صفة **الخَلق** هي صفة ملازمة للمخلوقات، ولا يمكن عقلاً تعميمها على الخالق المنفصل عن صفات خلقه.

إذًا، لا بد من وجود بداية مطلقة تنتهي إليها سلسلة الأسباب، وخالقٍ أزلي لم يسبقه عدم.

ومن الرائع هنا استحضار توجيه النبي ﷺ لمن يراوده هذا السؤال حين قال:

(يَأتي الشَّيطانُ أحَدَكُم فيَقولَ: مَن خَلَقَ كَذا وكَذا؟ حتَّى يَقولَ له: مَن خَلَقَ رَبَّك؟ فإذا بَلَغَ ذلك، فليَستَعِذْ باللهِ وليَنْتَهِ)[1].

ولعل البعض يتساءل: لماذا نُؤمر بالتوقف هنا؟ هل هو تعطيل للعقل؟

على العكس تمامًا!

بل هو احترامٌ للعقل وصيانةٌ له؛ لأن المضي في هذا السؤال لا يقود إلى معرفة، بل يقود إلى إنكار البديهيات العقلية.

لأن العقل أداة خُلقت لفهم العالم المادي القائم على الزمان والمكان والسببية. والسؤال عن ذات الخالق يقع خارج حدود الزمان والمكان، فالأمر بالانتهاء هو صيانة للأداة (العقل) من أن

(1) أخرجه البخاري

تعمل في غير مساحتها الوظيفية، تمامًا كالعين التي لا يمكنها رؤية الأشعة فوق البنفسجية.

تأمل ختامي:

كلما تأمل الإنسان هذا الكون، أدرك أنه لا يقف أمام وجودٍ أعمى أو قوةٍ مجهولة..

بل أمام خالقٍ عظيم تظهر آثار صفاته في كل شيء من حوله.

فهذا الإحكام يدل على علمه..

وهذا النظام يدل على حكمته..

وهذا الاتساق يدل على وحدانيته..

واستمرار الكون يدل على قيوميته وتدبيره..

وعظمة الخلق تدل على كمال قدرته..

إن العقل لا يقودنا فقط إلى الإيمان بوجود خالق،

بل يقودنا كذلك إلى صورة واضحة عن صفاته؛ خالقٍ حيّ، عليم، حكيم، قادر، غنيّ، واحد، أول، لا يشبه خلقه ولا يحتاج إليهم.

ولكن بعد هذه المرحلة من التأمل العقلي، يبرز أمامنا سؤالٌ جديد:

إذا كنا قد وصلنا بالعقل إلى وجود الخالق، واستطعنا استنباط بعض صفاته، فكيف نعرف الغاية التي أرادها من خلق الكون؟

هذا ما سنبحثه في الفصل القادم...

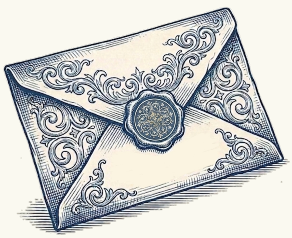
قبل أن ننتقل للفصل القادم...

أي صفة من الصفات التي تأملناها معًا شعرت أنها قربتك أكثر من معرفة الخالق؟ ولماذا؟

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

الفصل الثالث

كيف نـجـد "الرسالة"؟



بعد أن استنتجنا في الفصل السابق – من خلال التأمل العقلي في هذا الكون البديع – أن لهذا الوجود خالقًا عظيمًا، واستطعنا أن نستنبط بعض صفاته من خلال آثار صنعه وإحكام خلقه؛ فعلمنا أنه حكيم، عليم، قدير...

ينتقل بنا التفكير تلقائيًا إلى سؤالٍ جديد:

كيف نتعرف على ما يريده منا هذا الخالق؟

فالإيمان بوجود خالق ليس نهاية الرحلة، بل بدايتها؛ إذ تتطلع النفس بطبيعتها إلى معرفة الغاية، والبحث عن الطريق، وفهم الحكمة من هذه الرحلة التي نعيشها فوق الأرض.

فالإنسان لا يستطيع أن يعيش مطمئنًا وهو يجهل لماذا خُلق، وإلى أين يسير، وما الذي ينتظره بعد هذه الحياة.

ولهذا ظل سؤال **الرسالة** من أعظم الأسئلة التي شغلت البشرية عبر التاريخ.

فمن غير المعقول أن يخلق الخالق هذا الكون البديع بكل ما فيه من إحكامٍ واتزان، ثم يترك الإنسان تائهًا بلا هداية، أو يعيش عمره كله يبحث عن المعنى دون جواب.

إن الحكمة التي أوجدتنا، لا بد أنها قد رسمت لنا طريقًا نهتدي

به، وأرسلت إلينا ما يعرّفنا بها، ويكشف لنا لماذا خُلقنا، وكيف نـحيا الحياة التي أرادها لنا خالقنا.

1. المنطق ينفي العبثية:

تخيّل لو أن طالبًا رأى أستاذًا جامعيًا مرموقًا، يُعرف برصانة العقل وسعة العلم، وهو يتابع بنفسه تجهيز قاعة في الحرم الجامعي؛ يوجّه العمال، ويتفقد ترتيب المقاعد، ويتأكد من ضبط السماعات وتجربة الميكروفونات، ويشرف على إعداد المنصات والزينة، ويحرص على أن يكون كل شيء في مكانه على أكمل وجه. فسأله الطالب: "يا دكتور، لماذا كل هذا الاستعداد؟ ما المناسبة المهمة التي تستحق كل هذا العناء؟

فأجابه الدكتور بلا مبالاة:

"لا شيء على الإطلاق... لا توجد مناسبة، إنما نقوم بكل هذه الاستعدادات هكذا بلا غاية!"

هل سيتقبل عقل الطالب هذا الرد؟ بالتأكيد لا.

فكلما زادت حكمة الشخص، زاد استنكارنا لفكرة صدور **فعل بلا هدف** منه.

فإذا كان هذا حال البشر، فكيف بخالق الكون الذي ظهرت حكمته في كل زاوية من هذا الكون؟

إن المنطق يقول إن لهذا الخلق غاية، وأن هذه الغاية موجّهة بالأساس إلى **الإنسان**؛ الكائن الوحيد من بين ملايين الكائنات الذي مُنح أداة الإدراك: **العقل..**

ليفهم ويحلل ويختار.

إذا كانت الحكمة تقتضي أن لهذا الكون رسالة، وأن هذه الرسالة لا بد أن تكون موجهة للإنسان، فإن السؤال الطبيعي الذي يفرض نفسه هنا هو: **كيف نميّز هذه الرسالة؟**

فعندما ننظر حولنا، سنجد مئات الأديان والمعتقدات، وكلٌ منها يدّعي أنه الحق المطلق الذي يمثل رسالة الخالق. فكيف نصل إلى الحقيقة دون أن نضل في هذا الزحام؟

دعنا نتأمل هذا الموقف:

شاب عاد من غربة دامت سنوات، وحين هبط في المطار وجد عشرات سيارات الليموزين في انتظاره.

هاتفه مغلق، وهو يعلم أن والده أرسل له سيارة واحدة فقط لتُعيده إلى بيته.

تقدّم إليه السائقون جميعًا، وكل واحد منهم يحلف بأنه المرسل من والده (رغبةً في كسب الزبون).

هنا يصبح الشاب أمام خيارين:

إما أن يركب أي سيارة عشوائيًا (وهذه مخاطرة قد تبعده عن أهله)، أو أن يستخدم المعايير الصحيحة للاختيار.

لن يختار السيارة الأحدث، ولا السائق الأكثر أناقة، بل سيطلب من كل واحد منهم أمارة (دليلًا) كأن يسألهم:

"ما اسم والدي؟"

"أين يقع بيتنا بالضبط؟"

"ما هي مواصفات المنزل؟"

هذه هي الطريقة العقلية الصحيحة؛ فمن جاء من عند **المرسل الحقيقي** لا بد أن يحمل من العلامات ما ينسجم مع المعرفة المسبقة به.

وهكذا.. فإن رحلة البحث عن الدين الحق ليست ترفًا فكريًا أو انقيادًا عاطفيًا، بل هي عملية استدلال واعية؛ فكما يرفض ذلك الشاب أن يركب أي سيارة قبل أن يتأكد من مطابقة أماراتها للمعلومات التي لديه عن أبيه، كذلك هو حالُنا مع الأديان.

إننا لا نبحث عن الدين الأكثر انتشارًا أو الأقدم عهدًا فحسب، بل نبحث عن ذلك الذي تتطابق "**أماراته**" مع ما أدركناه بعقولنا عن صفات الخالق.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

إذا كنت على يقين أن لهذا الكون خالقًا حكيمًا، فهل ترى أن من الطبيعي أن يترك الإنسان دون هداية أو رسالة؟ ولماذا؟

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

الفصل الرابع
غربلة الأديان



إذا كنا قد توصّلنا بالعقل إلى أن لهذا الكون خالقًا واحدًا، واستطعنا أيضًا من خلال التأمل في الخلق أن نستنبط بعض صفات هذا الخالق، فيمكننا الآن بالمنطق أن نـجعل هذه الصفات بمثابة فلاتر تنقية نختبر بها المعتقدات والأديان[1].

فأيُّ دين يتصادم مع هذه الصفات، هو بالضرورة معتقد بشريّ الصنع، أو **طالته يد التغيير والتحريف** عبر التاريخ.

أ- فلتر وجود الخالق

بمجرد استخدام الفلتر الأول، تخرج من دائرة البحث التيارات والمعتقدات التي لا تؤمن بوجود خالق صانع للكون؛ **كالبوذية** (التي يتبعها حوالي 4.1% من سكان العالم).

فهي في جوهرها الأصيل فلسفات أخلاقية وتأملية، لا تتبنى مفهوم الإله الخالق المهيمن على الكون،

بل إن المتون البوذية القديمة كـ (سوترا تيتثا – Tittha Sutta) ترفض فكرة الخلق وتعتبرها متعارضة مع مسؤولية الإنسان، حيث جاء فيها:

(1) للتوسع في دراسة الأديان ومعتقداتها ومصادرها التاريخية، يُمكن الاطلاع على:
(كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي)، (وموسوعة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي)

"إذا كان العالم قد خُلق بواسطة إله، فلن يكون هناك معنى للعمل الصالح أو السيئ، لأن كل الأشياء ستكون ناتجة عن مشيئة الخالق وحده".

كما يخرج بهذا الفلتر عدد من الديانات والفلسفات الآسيوية الأخرى **كالجاينية** التي تنفي صراحةً وجود علة أولى أو صانع أزلي للكون، **والكونفوشيوسية** التي تمحورت بالكامل حول تنظيم المجتمع والأخلاق الدنيوية دون الالتفات لفكرة الإله الخالق.

ب- فلتر الوحدانية

وهنا تخرج المعتقدات التي تتصادم مع بديهة التوحيد، **كالهندوسية** (التي يتبعها حوالي 14.9% من سكان العالم)، حيث تتعدد الآلهة وتتوزع **الألوهية** بين ملايين الرموز.

والعقل الذي يبحث عن خالق ومنظم واحد للكون، يستحيل أن يستسيغ تشتت الإرادة وتنازع القوى، فكما استنتجنا سابقًا، فإن تعدد الآلهة لا بد أن يؤدي إلى اضطراب قوانين الطبيعة نتيجة تضارب الإرادات والقدرات.

ولا يظل هذا الاستنتاج مجرد فرضية عقلية، بل تكشف عنه

متونهم الدينية التي سقطت في فخ التناقض؛ فبدلاً من أن تقدم تلك النصوص تصورًا يضمن الانسجام والتنسيق بين الآلهة المتعددة في كونٍ واحد، غرقت في صياغة أساطير تحكي عن صراعات مسلحة وحروب طاحنة؛ ففي كتاب **(شيفا بورانا – Shiva Purana)** نـجد قصصًا صريحة لحروب بين الآلهة الكبرى مثل شيفا، وبراهما، وفيشنو، للهيمنة على الكون.

إن هذه الحروب المذكورة في نصوصهم الدينية تكشف في جوهرها عن ضعف آلهتهم؛ فكل إلهٍ هنا يحتاج للغلبة على غيره ليثبت وجوده، وهو ما يتناقض مع كمال الألوهية.

كما يخرج بهذا الفلتر أيضًا معتقدات كبرى أخرى قائمة على التعدد؛ كالديانات الصينية التقليدية (**كالطاوية الشعبية**) التي تزدحم بآلهة مخصصة لكل ظاهرة كونية، وهو تصور يفتت مفهوم الإله الواحد القدير ويحيله إلى قوى متصارعة مجزأة، عاجزة عن ضبط النظام الكوني.

ج- فلتر الحكمة والعدل الشامل

هناك ديانات قومية عرقية منغلقة؛ بعضها يرفع شعار (ممنوع الدخول)

تمامًا كـ **الإيزيدية**، **والصابئة المندائية**، **والزرادشتية**، حيث لا يُقبل المتحولون من الخارج مطلقًا. وبعضها ينغلق عمليًا وتشريعيًا خلف أسوار الهوية القومية والشروط البيولوجية الصارمة كـ **السيخية والشنتوية اليابانية**.

وهنا يتساءل العقل:

هل من الحكمة أو العدل الإلهي أن يضع الخالق طريق النجاة والمعرفة حكرًا على سلالة جينية أو جغرافية معينة، ويحرم منها بقية البشر لمجرد أنهم لم يولدوا هناك؟

إن هذا التمييز يتنافى تمامًا مع صفتي الحكمة والعدل؛ فالطريق إلى الخالق يجب أن يكون كالهواء والشمس، متاحًا لكل عقل يطلبه، وليس مجرد امتيازٍ وراثيّ.

د- فلتر القوة والتنزيه المطلق

أخيرًا، نـجد معتقدات تؤمن بوجود خالق للكون، كالمسيحية واليهودية. ولكن عند تأمل هذه المعتقدات بميزان العقل، تبرز دلائلُ تُظهر عدم اتساق هذه التصورات مع صفات الخالق المطلقة.

ففي الديانة المسيحية - التي يعتنقها نـحو 28% من سكان العالم باختلاف طوائفهم - نـجد طرحًا يتجسد فيه الخالق في صورة بشرٍ يتعرض لمظاهر الضعف البشري كأن يُصلب ويُعذَّب كي يُكفِّر عن خطايا لم يرتكبها! **(إنجيل متى 27: 35-50)**. وللعقل أن يتساءل هنا: ألا تتنافى هذه الصورة مع قدرة الخالق المطلقة على الغفران بمجرد إرادته دون حاجةٍ لهذا الألم؟

كما يثير البناء العقائدي لـ "**الأقانيم**" و"**الثالوث**" تحديًا أمام المنطق في دمج التعدد والوحدة في آنٍ واحد **(إنجيل يوحنا 10: 30)**، مما يجعل مفهوم "**الإله الواحد**" في هذا السياق أقرب إلى الألغاز الفلسفية التي تتجاوز حدود الإدراك العقلي المباشر.

أما في الديانة اليهودية – التي يتبعها أقل من 1% من سكان العالم – نـجد نصوصًا تضفي على الذات الإلهية سماتٍ تتشابه مع ضعف الطبيعة البشرية، كإلهٍ يحزن، أو يندم **(سفر التكوين 6: 6، سفر صموئيل الأول 15: 11).** ويُضاف إلى ذلك اعتقادهم بحدودٍ قومية لصورة الإله فيما يُعرف بعقيدة "**شعب الله المختار**".

وعند تأمل جميع هذه المعتقدات بميزان العقل، نـجد فجوةً كبيرة؛ فالعقل السليم يُدرك أن الخالق يجب أن يكون كاملاً ومنزهًا عن كل ما يطرأ على المخلوقات من نقصٍ أو زوال. ومن هذا المنطلق، نـجد صعوبةً في التوفيق بين مفهوم "**الكمال المطلق**" وبين الأفكار التي تجعل من الخالق كائنًا يضعف، أو يتجسد، أو يتجزأ.

وبناءً على ذلك، تبدو تلك التصورات بعيدةً جدًا عن الصورة العظيمة للخالق التي يدركها العقل حين يتأمل في اتساع هذا الكون، وعظمة تدبيره، وإحكامه.

النتيجة:

بعد هذه التصفية العقلية السريعة التي شملت أديان حوالي 50.2% من سكان العالم، وبإضافة نسبة اللادينيين والملحدين واللاأدريين 24.2%، نكون قد مررنا على نـحو 74.4% من سكان العالم[1].

ومن خلال هذه الغربلة..

رأينا كيف تهاوت تلك المعتقدات أمام الفلاتر المنطقية الأولية بسبب تناقضات بنيوية في تصورها عن الخالق.

والآن...

لم يتبقَ في ساحة البحث سوى الإسلام (الذي يُمثّل معتنقوه حوالي 25.6% من سكان العالم)؛ كونه المعتقد الوحيد الذي لم يصطدم بالخطوط العريضة لهذه الفلاتر الفطرية.

ولكن..

هل هذا الصمود المبدئي للإسلام سيثبت عند الفحص الدقيق؟

---

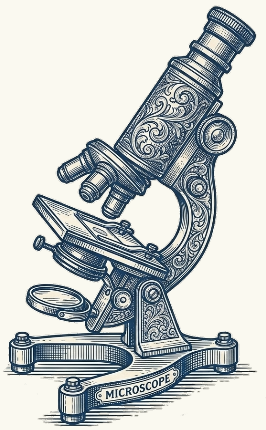
(1) النسب المذكورة مبنية على بيانات مركز بيو للأبحاث (Pew Research Center) الخاصة بالتوزيع الديني العالمي، وفق أحدث دراسة منشورة عام 2025م.

وهل تتطابق نصوصه وتشريعاته الداخلية مع الفلاتر العقلية التي وضعناها دون أي تناقض خفي؟

هذا ما سنكتشفه في الفصل القادم، **حيث نضع الإسلام تحت المجهر.**

الفصل الخامس

الإسلام تحت المجهر



بعد أن مرّرنا الأديان على الفلاتر العقلية السابقة، وصمد الإسلام في خط الدفاع الأول كفرضية وحيدة تستحق الدراسة، يبرز السؤال الأهم: كيف يبدو الإسلام إذا وُضع فعليًا تحت هذا المجهر العقلي؟

أولاً: تطابق الوحي مع العقل (فلتر الصفات)

من المدهش أن الصفات التي استنتجها العقل في الفصل الأول (الواحد، القوي، المدبر، الغني، الحكيم) هي ذاتها التي يقدمها الإسلام عن الخالق.

ففي الإسلام، الله هو الصمد (الذي لا يحتاج لأحد والكل يحتاج إليه)، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ [سورة الإخلاص].

وهو القوي الذي ليس كمثله شيء (تنزيه مطلق عن الضعف البشري)، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[سورة الشورى:11].

لا نـجد في التصور الإسلامي إلهًا يندم أو يضعف أو يُهزم، بل نـجد إلهًا متصفًا بالكمال المطلق، مما ينسجم مع العقل الذي يرفض نسبة النقص إلى الخالق.

ثانيًا: سمات العقيدة

لا يقدم الإسلام نفسه كأحجية غامضة تتطلب **إيمانًا أعمى**، بل العكس فالإسلام ينتقد هذا النوع من الإيمان الذي يستند فقط على فكرة تقليد الآباء و اتباعهم بلا تفكير .

لقد قدم الإسلام عقيدة تنسجم مع منطق العقل وتلبي نداء الفطرة. إليك أهم ما يميز هذه العقيدة:

1. الوضوح التام والتحرر من "الكهنوت"

في كثير من المعتقدات، يجد الإنسان نفسه مضطرًا للمرور عبر وسيط (كاهن، قديس، أو رجل دين) ليغفر له أو يوصل صوته للخالق.

أما في الإسلام.. فقد حُطمت هذه الأغلال؛ فالعلاقة بينك وبين الله مباشرة تمامًا.

ولا توجد في الإسلام أسرار مقدسة محتكرة لفئة دون غيرها، ولا طقوس معقدة يعجز العقل عن فهمها.

بل رسالة الإسلام واضحة ومحددة:

الله واحد، خلق الإنسان ليعبده، وأرسل الرسل لهدايته، وبناءً على عمله يكون مصيره يوم القيامة إلى الجنة أو النار.

وهي رسالة يمكن لطفلٍ أن يفهمها ببساطتها، وفي الوقت نفسه يجد فيها الفلاسفة إجابات لأسئلتهم الكبرى.

2. عقيدة الفطرة.. لا رهبانية ولا كبت (ساعة وساعة):

الإسلام لا يعادي الطبيعة البشرية، ولا يطلب منك الانفصال عن الحياة لتكون قريبًا من الله، بل يعترف بأن الإنسان له احتياجات ورغبات وطموحات.

- **تهذيب لا كبت**: بدلاً من منع الزواج (كالرهبانية)، **جعل** الزواج عبادة يؤجر المرء عليها. وبدلاً من تحريم التملك، دعا للعمل والنجاح والغنى **(نِعمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ)**[1].

- **فلسفة "ساعة وساعة"**: كما ورد في حديث الصحابي حنظلة، الإسلام يدعو إلى التوازن. هناك ساعة لمناجاة الله والعبادة، وساعة للحياة والعمل والراحة والترويح عن النفس.

هذا التوازن هو الذي يحمي الإنسان من الانفجار النفسي أو الشعور بالذنب تجاه فطرته البشرية.

(1) صححه الألباني

3. «الخاتمية» والعالمية.. الدين الذي لا يُفرّق بين البشر

بينما تنغلق بعض الأديان على عرقٍ معين (كالأديان القومية) أو تتوجه لشعبٍ بذاته، يكسر الإسلام هذه الحدود؛ فهو ليس دينًا للعرب، بل هو "**رسالة رحمة للعالمين**".

تقوم فلسفة الإسلام على مبدأ المساواة المطلقة؛ فلا فضل لإنسان على آخر بلونٍ أو عرقٍ أو نسبٍ، إذ المعيار الوحيد هو التقوى والعمل الصالح.

هذا الخطاب الإنساني العابر للحضارات لم يكن مجرد نصٍ نظري، بل تجلى في انتشارٍ طوعيٍ مذهل؛ فبينما يواجه الإسلام حملاتِ تشويهٍ مكثفة وضغوط المادية المعاصرة، تشير مراكز الأبحاث الدولية[1] – كمركز بيو – إلى أن الإسلام هو أسرع الأديان نموًا وانتشارًا في العالم، **حتى في قلب الدول المتقدمة.**

إن استمرار هذا التمدد الفطري وتجاوزه لِحواجز الجغرافيا والثقافة، يطرح على العقل المنصف سؤالاً هامًا:

للمزيد حول إحصائيات الانتشار العالمي للأديان: The Future of World Religions: Population Growth Projections, 2010-2050 | Pew Research Center

كيف لرسالةٍ نطق بها رجلٌ في صحراء قبل قرون، أن تظل هي الأكثر قدرةً على ملء الفراغ الروحي والعقلي لإنسان القرن الحادي والعشرين؟

إن هذا الثبات التاريخي الحي في وجه كل محاولات التغييب، هو شهادةٌ ناصعةٌ على أن هذا المنهج لم يكن يومًا من صنع بشر، بل هو وحيُ ربِّ البشر.

4. سلسلة الهداية المتصلة:

فالإسلام ليس حدث تاريخي بدأ في القرن السابع الميلادي مع بعثة النبي الكريم محمد ﷺ،

بل هو امتداد لعقيدة التوحيد الأولى التي أُوحي بها إلى آدم عليه السلام – أول البشر – من رب العالمين.

إنها سلسلة متصلة بدأت بآدم، ومرت بنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخُتمت بمحمد – عليهم السلام جميعًا – وقد توحدت رسالاتهم في نداء واحد:

"اعبدوا الله وحده"

ومن هنا ينبع إيمان المسلم، الذي لا يكتمل إلا بالتصديق بجميع هؤلاء الرسل.

ورغم تعدد الكتب السماوية، واختلاف الشرائع في تفاصيلها لتناسب الأزمنة والأقوام،

إلا أنها جميعًا اتحدت على عقيدة التوحيد الخالدة؛ التي تمثل جوهر الرسالة الإلهية الممتدة عبر التاريخ.

5. الثبات في عالم متغير (عقيدة لا تقبل التحريف)

من أعظم سمات هذه العقيدة أنها ربانية المصدر؛ فهي لا تخضع لأهواء البشر أو لتعديلات المصلحين. فلا يمكن لأي سلطة دينية أو سياسية في الإسلام أن تُغيّر أصل العقيدة أو تبدّل حكمًا ثابتًا فيها؛ فقد قال النبي ﷺ:

(مَن أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليس فيه فهو رَدٌّ)[1]

وهذا من أسباب بقاء الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ محفوظةً وواضحةً عبر أكثر من 1400 عام دون تغيير في أصولها.

وقد جاء هذا الحفظ الإلهي بعد مسار طويل من إرسال الرسل عبر التاريخ؛ إذ كانت الحكمة تقتضي أن يُجدد التوحيد كلما وقع الانـحراف.

(1) أخرجه البخاري

فجاءت سلسلة الأنبياء لتجديد هذا المعنى وإعادة الناس إلى أصل الرسالة كلما وقع الانـحراف.

حتى خُتمت الرسالات بنبوة محمد ﷺ، وكان من حكمة الله أن يتولى حفظ هذه الرسالة بنفسه، حفظًا لمعناها ونصها،

كما قال سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر:9].

وبذلك تمثل رسالة محمد ﷺ الرسالة الخاتمة، الجامعة والمهيمنة على ما قبلها، وقد اكتمل بها بنيان الإسلام في صورته النهائية المثالية لتناسب كل زمان ومكان حتى قيام الساعة.

6. الشمولية: الإسلام كـ "منهج حياة" متكامل

من أبرز سمات العقيدة الإسلامية هي الشمولية. فالإسلام ليس دينًا يقتصر على العبادات فقط، بل هو منهج حياة متكامل يرافق الإنسان من لحظة استيقاظه إلى نومه.

- **شبكة العلاقات الإنسانية:**

لا يترك الإسلام الإنسان حائرًا في كيفية التعامل مع الآخرين؛ فقد وضع دستورًا لكل علاقة. بدءًا من بر الوالدين، وحقوق الزوجين، وتربية الأبناء، وصولاً إلى أدب الجوار، والتعامل مع

الغرباء، وحتى قواعد "الفروسية" الأخلاقية في التعامل مع الأعداء.

- **بناء الشخصية النفسية:**

يتدخل الإسلام في تهذيب السلوك الداخلي للإنسان، فيعلمه ضبط الغضب، والصبر عند الظلم، والتواضع عند القوة، والثبات عند الابتلاء.

وبذلك يعيد تشكيل التوازن الداخلي للإنسان ليكون أكثر انسجامًا مع نفسه ومع محيطه.

- **المسؤولية تجاه الذات:**

في التصور الإسلامي، الإنسان ليس حرًا في إهمال نفسه؛ فجسده ووقته أمانة. وهو مسؤول عن رعايتهما، مما يرسخ معنى الانضباط وتقدير الذات.

- **حتى مع غير البشر:**

تمتد هذه الشمولية لتشمل البيئة والحيوان؛ فالإنسان مسؤول أمام الله عن القسوة مع كائن حي، أو حتى عن هدر الموارد الطبيعية بلا سبب.

- **النجاح كقيمة دينية**:

في الإسلام، يُعتبر السعي والقوة والنجاح من الأمور المستحبة التي يشجع عليها الدين؛ فـ (**المُؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعيفِ**)[1].

- **والمميز هنا**، أن المرء يُكافأ بالحسنات حتى على تفاصيل حياته العادية؛ فممارسته للرياضة أو اتباعه لنظام صحي وحتى وقت ترفيهه واستمتاعه ينال عليه أجرًا، ما دامت نيته هي الترويح عن النفس لشحذ طاقتها، ومواصلة رحلته في الحياة بنفسية متزنة.

النتيجة:

عندما يتبع الإنسان هذه العقيدة، فإنه لا يعيش في "جزر معزولة" (دين، عمل، أسرة، ترفيه)، بل تتوحد حياته كلها في اتجاه واحد منسجم.

يختفي الصراع الداخلي والتناقض، ويصبح كل فعل يقوم به – مهما بدا بسيطًا – **ذا معنى وقيمة وهدف**.

---

(1) أخرجه مسلم.

مصادر العقيدة: لماذا نثق في "القرآن والسنة"؟

بعد أن استعرضنا ملامح هذه العقيدة وشموليتها واتساقها مع العقل والفطرة، يبرز سؤال طبيعي وأساسي:

ما الذي يجعلنا نثق في مصادرها؟

وكيف نتحقق من أن القرآن والسنة ليسا مجرد نتاج بشري، بل وحي إلهي محفوظ؟

وللإجابة عن هذا السؤال:

لا بد أولًا من فهم المنهج الذي وضعه هذا الدين للوصول إلى الحقيقة؛ فالإسلام لا يطلب منك أن تُغلق عقلك وتؤمن، بل على العكس تمامًا، فهو دين يُخاطب العقل ويأمر بالتفكر والتعقل في كل ما يحيط بالإنسان.

فالإيمان في الإسلام لا يقوم على العاطفة المجردة، بل على الحجة والبرهان. وانطلاقًا من هذا الأصل العقلي نفسه، فإن أول ما ينبغي فحصه هو طبيعة المصادر التي يُبنى عليها هذا الدين.

فمصادر الدين الإسلامي تقوم على أصلين رئيسيين:

القرآن الكريم: كلام الله الموحى به.

السنة النبوية: البيان العملي والتطبيقي لهذا الوحي

من النبي ﷺ

وبما أننا في رحلة بحث عن اليقين، فلن نكتفي بمجرد التعريف بها، بل سنضع هذه المصادر تحت مجهر التحليل العقلي والتاريخي: كيف وصل إلينا القرآن دون تغيير؟ وما الذي يدل على صدق من بلّغه؟

هذا ما سنكتشفه في الفصل القادم...

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

ما أكثر جانب في الإسلام شعرت أنه ينسجم مع فطرتك ويجيب عن أسئلة الإنسان الكبرى ببساطة ووضوح؟

الفصل السادس

أدلة صدق القرآن الكريم



بعد أن تعرّفنا على أهم سمات العقيدة الإسلامية، وعلى مصادر تلقيها، يبقى السؤال الجوهري في رحلة البحث عن اليقين:

كيف نتحقق – بعقولنا المجردة – من صدق هذا المصدر الإلهي؟ وكيف يُبرهن القرآن الكريم على أنه وحيٌ إلهي، وليس من تأليف البشر؟

إن الإجابة لا تقوم على تسليم عاطفي، بل على براهين موضوعية واضحة تشهد بقوة لهذا الكتاب.

ومن أبرز هذه البراهين قدرته المذهلة على اختراق حجب الزمن، والحديث عن غيبٍ لا يملك مفاتيحه إلا الله سبحانه، سواء كان غيبًا مضى وانقضى، أو غيبًا لم يقع بعد ثم وقع كما أخبر به القرآن تمامًا.

أولاً: الإخبار عن الغيب الماضي:

يحتوي القرآن الكريم على آيات تروي قصص الأنبياء السابقين (كآدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، لوط... وغيرهم) عليهم السلام بتفاصيل مذهلة.

لم يكتفِ القرآن بذكر الأسماء، بل قام بسرد الحوارات الدقيقة التي دارت بينهم وبين أقوامهم، وحدد بدقة وسائل هلاك

المكذبين، رغم أن بين زمان محمد ﷺ وأزمنة هؤلاء الأنبياء آلاف السنين!

وهنا يبرز تساؤل: من أين جاء محمد ﷺ بكل تلك التفاصيل؟

فعندما نتأمل في شخص الرسول ﷺ قبل البعثة، نـجد رجلاً عاش أربعين عامًا في مكة؛ وهي بيئة صحراوية معزولة عن مراكز العلم والكتب.

لم يُعرف عنه مُجالسةُ العلماءِ ولا قراءةُ الكُتُبِ، ولم يغادر مكة إلا في رحلات تجارية عابرة تحت أنظار الجميع.

ولأن هذه الأخبار كانت تتجاوز تمامًا حدود علم أهل مكة، لجأ المشككون حينها إلى اليهود في الجزيرة العربية – وهم "أهل الكتاب" والمرجعية العلمية في ذلك الزمان – لعلهم يجدون في قول محمد ﷺ كذبة أو خطأً تاريخيًا يُبطل دعوته.

ورغم العداوة الشديدة التي كان يكنّها اليهود للدعوة الجديدة، إلا أنهم حين سمعوا قصص القرآن عجزوا عن تكذيب تفصيلة واحدة؛ بل وجدوها متطابقة مع أصول العلم الذي يمتلكونه.

هذا الاعتراف الضمني من **الخصم الخبير** يقطع بأن هذا المصدر ليس بشريًا، بل هو وحيٌ من الخالق الذي شهد تلك الأحداث وأمر بخلودها.

أسئلة التعجيز الثلاثة: (حين تحالفت قريش مع أهل الكتاب)

لم يتوقف محاربو الدعوة في مكة عند هذا الحد، بل قرروا الانتقال من **محاولة التشكيك** التي باءت بالفشل إلى **الاختبار التعجيزي**.

فأرسلت قريش وفدًا إلى أحبار اليهود في المدينة – باعتبارهم المرجعية الكبرى في أخبار الأنبياء – يطلبون منهم أسئلة لا يجيب عليها إلا نبيّ مرسل.

فاقترح اليهود ثلاثة أسئلة غامضة وتاريخية، تحدُّوا بها صدق النبي ﷺ:

- عن فتية غابوا في الزمن الأول، ما كان من شأنهم؟
- عن رجل طواف طاف الأرض وبلغ مشارقها ومغاربها؟
- عن الروح وما هي؟

وجاء الرد الذي لم يتوقعه أحد؛ إذ نزل الوحي بآيات مفصلة – منها ما جاء في سورة الكهف – تجيب عن قصة الفتية (أصحاب الكهف) وقصة الرجل الطواف (ذو القرنين) بتفاصيل تاريخية لم تكن معلومة عند العرب، وأجاب عن الروح بأنها من مقتضى علم الله وحده.

تركت هذه الإجابات التفصيلية المعارضين في حالة من العجز عن الرد؛ فالمصدر الذي أجاب لم يكن كتابًا قرأه محمد ﷺ، ولا معلمًا جالسه، بل هو الخالق الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

وإذا كان إعجاز القرآن في إخبار الغيب الماضي قد أفحم الخصوم من خلال كشف أسرار التاريخ المطوية، فإن الانتقال من الماضي إلى المستقبل يمثل التحدي الأكبر والمخاطرة الفورية التي لا يجرؤ عليها إلا واثقٌ من مصدره.

فبينما يمكن للمشكك أن يحاول الجدال في حوادث مضت، يأتي الغيب المستقبلي ليضع مصداقية الوحي تحت مجهر الواقع الحاضر وأمام أعين المعاصرين...

ثانيًا: الإخبار عن الغيب المستقبل (تحدي المصداقية الفوري)

هذا الدليل هو الأقوى من حيث المنطق؛ لأن المتحدث عن المستقبل يضع مصداقيته على المحك أمام الجميع. الغيب المستقبلي في القرآن جاء على مستويين:

- **الغيب البعيد:** وهو الإخبار عن أحداث يوم القيامة، والحساب، وأشراط الساعة (مثل خروج الدابة، ويأجوج ومأجوج). وهذا النوع يُصدقه المؤمن يقينًا بناءً على صدق المصدر.
- **الغيب القريب (المخاطرة الكبرى):** وهذا هو تحدي الساعة. فالتنبؤ بحدث سيقع بعد سنوات قليلة هو مخاطرة لا يجرؤ عليها بشر يدَّعي النبوة، لأن فشل النبوءة يعني نهاية دعوته للأبد.

معجزة غلبت الروم:

في وقت كانت فيه دولة الفرس (القوة العظمى حينها) قد سحقت الروم تمامًا، نزل القرآن ليقول كلمته الحاسمة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الروم:2-4].

التحدي هنا مضاعف:

القرآن حدد المنتصر (الروم) وحدد الزمن (بضع سنين، أي من 3 إلى 9 سنوات).

من الناحية العسكرية، كان انتصار الروم مستبعدًا، فلو مرت السنوات ولم ينتصروا، لكان كفار مكة قد أعلنوا كذب الرسول ﷺ وهدموا دينه أمام أتباعه.

ولكن، وفي الموعد المحدد تمامًا، انتصرت الروم وصدقت نبوءة القرآن.

معجزة سورة المسد (تحدي الإرادة البشرية):

نزل القرآن يتوعد أبو لهب (أشد أعداء الإسلام) بأنه سيموت كافرًا وسيدخل النار: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [سورة المسد:3].

فكّر في هذا المنطق:

كان أبو لهب حيًا يرزق عند نزول هذه السورة، واستمر حيًا بعدها لمدة 10 سنوات!

كان بإمكان أبي لهبٍ ببساطة شديدة أن **يُمثِّل** الإسلام، فيخرج أمام الناس ويقول: "لقد أسلمت"، وبذلك يُثبت أن القرآن أخطأ في الحكم عليه بالنار.

لقد كان ثبوت صحة الإسلام وصدق القرآن متوقفة على كلمة واحدة ينطقها عدو لدود، ومع ذلك، لم ينطقها!

ليس لأنه لم يستطع، بل لأن خالق النفوس أعلم بمآلها. فمات أبو لهب وزوجته على الكفر، وظلت السورة شاهدة على أن القائل هو الله الذي يعلم السر وأخفى.

وإذا ثبت أن القرآن يحمل دلائل تتجاوز القدرة البشرية،

يبقى سؤالٌ لا يقل أهمية:

هل وصل هذا الوحي إلينا محفوظًا كما نزل، أم امتدت إليه يد التحريف عبر القرون؟

وهنا تظهر واحدة من أعظم خصائص القرآن الكريم؛ وهي معجزة الحفظ والتواتر التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً.

ثالثًا: معجزة الحفظ والتواتر (كيف وصل إلينا القرآن؟)

حين يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ،[سورة الحجر:9].

فإننا نرى تجلي هذه الآية في نظام توثيقي هو الأدق في تاريخ البشرية.

فالقرآن ليس مجرد كتاب مطبوع نُقل من ورق إلى ورق، بل هو في أصله كتاب صوتي نُقل عبر **التواتر** من الصدور إلى الصدور.

• **نظام السند المتصل**:

إنَّ ضبطَ القرآن الكريم وحفظه في الإسلام لا يعتمدُ على القراءة الذاتية من المصحف فحسب، بل يقوم على نظامٍ أعمق يُعرف بـ "**الإجازة بالسند المتصل**"؛ وهي عمليةُ تلقٍّ وتلقينٍ تعتمدُ كليًا على المشافهة. فالسندُ عبارةٌ عن سلسلةٍ بشريةٍ متصلة، يُجيز فيها الشيخُ تلميذَه بعد إتقانه التلقيَ عنه؛ وهذا الشيخُ لم يأخذ هذه الإجازة إلا بعد أن تلقاها بدوره عن شيخه، وهكذا لتمتدَّ هذه السلسلةُ عبر التابعين والصحابة، وتصلَ إلى الرسول ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن رب العالمين.

• **المفاجأة الرقمية**:

قد يظن البعض أن 1400 سنة تعني آلاف الحلقات في السلسلة، لكن الحقيقة مذهلة!

هناك علماء وقراء يعيشون بيننا اليوم، لا يفصل بينهم وبين الرسول ﷺ إلا 27 شخصًا فقط!

تخيل، 27 رجلاً فقط هم كل المسافة الزمنية بيننا وبين لحظة نزول الوحي.

هذا القصر في السلسلة يضمن أعلى درجات الدقة والضبط.

• حفظ الصدور قبل السطور: الاعتماد الأساسي في حفظ القرآن كان على الصدور.

ولو فُقدت كل مصاحف الأرض اليوم، لاستطاع طفل صغير في أقصى شرق الأرض مع شيخ في أقصى غربها أن يعيدوا كتابة المصحف حرفًا بحرفٍ، وتشكيلةً بتشكيلةٍ.

إن أي خطأ بسيط يقع فيه قارئ في مسجد في أي بقعة من بقاع الأرض، سيرده عليه المصلون فورًا لأن "النص الأصلي" محفور في عقول الملايين.

• ومن الشواهد التاريخية على حفظ القرآن الكريم أيضًا ما كشفت عنه المخطوطات الأثرية؛ ففي عام 2015، أعلنت جامعة برمنجهام[1] البريطانية عن اكتشاف صفحات من مخطوطة قرآنية كانت محفوظة في مكتبتها، وبإخضاعها لفحص الكربون المشع (**Carbon-14**) في وحدة تسريع الإشعاع بجامعة أكسفورد، كانت المفاجأة التي هزت الأوساط العلمية.

(1) المصدر الرسمي: "مخطوطة برمنجهام القرآنية"، مجموعة مينغانا، جامعة برمنجهام، المكتبة البحثية (Cadbury Research Library).

لقد أثبت الفحص أن هذه المخطوطة تعود للفترة ما بين (568 م – 645م)، وهي فترة تتقاطع بشكل مباشر مع زمن حياة النبي ﷺ أو زمن الخلفاء الراشدين.

وعندما قام المختصون بمقارنة نص هذه المخطوطة العتيقة بالمصحف الذي بين أيدينا اليوم، كانت النتيجة:

تطابقًا حرفيًا؛ لم تتبدل كلمة، ولم يتغير حرف، ولم يتبدل موضع آية.

إن هذه المخطوطة ليست مجرد أثر تاريخي، بل هي برهان تقني يُسكت أي محاولة للتشكيك في سلامة النص القرآني عبر العصور، مؤكدة أن اليد التي حفظت هذا الكتاب هي يد خالقه سبحانه.

خلاصة معجزة الحفظ:

إن هذا النظام (التواتر الصوتي + السند المتصل + الحفظ الجماعي) جعل القرآن الكتاب الوحيد في العالم الذي لا يمكن تحريفه.

تذهب إلى نيجيريا، أستراليا، مصر، أو أمريكا، فتجد القرآن ذاته، بنفس النطق الذي نطق به الرسول ﷺ منذ أكثر من 14 قرنًا. هذا الصمود أمام الزمن هو برهان قاطع على أن المصدر

إلهي، وأن الحافظ هو الله.

وإذا كان حفظ القرآن عبر القرون يمثل دليلاً على العناية الإلهية بهذا الكتاب، فإن محتواه نفسه يحمل وجهًا آخر من وجوه الإعجاز؛ إذ تضمّن إشارات كونية سبقت معارف البشر بقرون طويلة.

رابعًا: الإعجاز العلمي (القرآن يسبق مختبرات العصر)

قبل أن نبدأ، يجب أن نوضح قاعدة جوهرية:

وهي أن القرآن الكريم ليس كتابًا مدرسيًا في الفيزياء أو الجيولوجيا أو الكيمياء، بل هو كتاب هداية للبشر.

ولكن من رحمة الخالق بنا، ومن مقتضيات كونه دينًا صالحًا لكل زمان، وضع فيه **إشارات** لظواهر كونية لم تكتشفها البشرية إلا في القرنين الأخيرين، لتكون هذه الحقائق **طوق نـجاة** لمن غلبه الشك في العصر الحديث.

1. المنهج الإسلامي في طلب العلم:

بينما شهد التاريخ ديانات حاربت العلم واعتبرت البحث في أسرار الكون هرطقة تستوجب الإعدام..

نـجد الإسلام يقف في الجانب المقابل تمامًا. لقد جعل القرآن

التفكر عبادة، والتدبر أمرًا إلهيًا، وحث الإنسان على السعي لإدراك الواقع من حوله.

هذا التصالح المطلق بين الوحي والعلم هو أول براهين صدق الإسلام.

والآن لنلقي نظرة سريعة على أمثلة من الإعجاز العلمي في القرآن.

الجبال.. الأوتاد الخفية:

يقول الله عز وجل في وصفه لإتقان خلق الأرض:

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ:7]. .

في لغة العرب، الوتد هو ما يُغرز في الأرض لتثبيت الخيمة، ويتميز بأن الجزء الأكبر منه يغوص تحت التراب ليعطي الثبات للجزء الظاهر فوق السطح.

ظلت البشرية لقرون تنظر للجبل على أنه كتلة صخرية بارزة فوق سطح الأرض فقط، ولم يبدأ العلم الجيولوجي في استكشاف الحقيقة إلا مع بدايات القرن العشرين وتطور نظرية الآيسوستازي (**Isostasy**) التي تتحدث عن التوازن الهيدروستاتيكي للقشرة الأرضية.

لقد أكدت الدراسات الجيولوجية الحديثة أن لكل جبل جذورًا عميقة تمتد داخل الغلاف الصخري للأرض، وتصل هذه الجذور

إلى أعماق تعادل أضعاف الارتفاع الخارجي للجبل.

وهنا يبرز الإعجاز؛ فكما يثبت الوتد الخيمة، تعمل هذه الجذور الجبلية كـ **مثبتات** للقارات فوق طبقات الأرض الأكثر سيولة، مما يمنع اضطراب القشرة الأرضية ويحفظ توازن الكوكب.

فمن أخبر محمدًا ﷺ قبل 1400 عام بهذه الحقيقة الجيولوجية التي لا تُرى بالعين المجردة، والتي لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد ثورة في علوم الأرض والمختبرات؟ إنه بلا شك وحي من خالق الجبال ومُرسِيها

3. اتساع الكون.. من الثبات إلى التمدد:

حتى مطلع القرن العشرين، وتحديدًا حتى عام 1917، كان علماء الفيزياء (وعلى رأسهم أينشتاين في بداياته) يؤمنون يقينًا بأن "الكون ثابت" ولا يتغير حجمه.

- التحول العلمي: تراجع أينشتاين لاحقًا واصفًا فكرة ثبات الكون بأنها **أكبر خطأ علمي في حياته**، بعد أن أثبتت الأرصاد الفلكية أن المجرات تتباعد عن بعضها بسرعة هائلة، مما يعني أن الكون في حالة توسع دائم.
- السبق القرآني: هذه الحقيقة المذهلة التي لم يستقر عليها العلم إلا منذ عقود قليلة، أعلنها القرآن بوضوح تام منذ 14 قرنًا في

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [سورة الذاريات:47]

ما الذي يخبرنا به هذا الإعجاز؟

إن وجود مثل هذه الحقائق الدقيقة في القرآن،– وغيرها الكثير – والتي لم تكن تخطر على بال بشر في ذلك الزمان، يثبت بوضوح أن هذا الكلام صادر عن خالق الكون نفسه. فمن أرسل الرسول ﷺ أخبره بحقائق كونية سنكتشفها نـحن بعد ألف عام، لنتيقن أنه رب هذا الكون، و أن القرآن هو كلامه الذي أنزله على نبيه الكريم محمد ﷺ .

وإذا كان الإعجاز العلمي قد كشف جانبًا من توافق القرآن مع حقائق الكون التي لم تُكتشف إلا في العصور الحديثة، فإننا ننتقل الآن إلى بُعدٍ مختلف تمامًا من وجوه الإعجاز؛ بُعدٍ لا يتعلق بالكون المادي، بل بأداة الإنسان الأولى في الفهم والتعبير: **اللغة.**

ففي الميدان الذي كانت فيه البلاغةُ هي ميزانَ التفاضل بين العقول، واجه القرآنُ أمةً كاملة من فحول البلاغة في عقر دارهم... ثم غلبهم.

ومن هنا يظهر وجهٌ آخر من وجوه الإعجاز: التحدي بالبيان.

خامسًا: التحدي بالبيان (حينما عجز فطاحلة اللغة)

نزل القرآن في بيئة كانت البلاغة فيها هي العملة الأغلى، واللغة العربية هي الميدان الذي يتفاخر فيه الشعراء والخطباء.

لم يكن العرب مجرد متحدثين، بل كانوا فطاحلة يدركون أسرار الكلمة ومواطن قوتها، ومع ذلك وقفوا أمام القرآن عاجزين مبهورين.

• سحر البيان وشهادة الأعداء:

حتى كفار مكة الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء، لم يستطيعوا إنكار عظمة أسلوبه. لدرجة أنهم كانوا يتواصون فيما بينهم بألا يسمعوا القرآن لئلا **يسحرهم** بجمال نظمه وبلاغة بيانه. لقد أدركوا بفطرتهم اللغوية أن هذا الكلام ليس من جنس كلام البشر.

• اعتراف ريحانة قريش (الوليد بن المغيرة):

ومِن أقوى الأدلة على سطوة القرآن البيانية؛ شهادةُ الوليد بن المغيرة؛ وهو من هو في فصاحته ودرايته بالشعر والنثر حتى لُقب بـ "ريحانة قريش".

وبالرغم من كونه أحد ألدّ أعداء الرسول ﷺ وأشدّهم محاربةً للدعوة، لكنه حين سمع آيات من القرآن، لم يملك إلا أن ينطق

بالحق أمام ملأ من قريش، واصفًا هذا الكلام بقوله الذي خلدته كتب السير:

"واللهِ إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، وما هو بقول بشر".

- **وجه الدلالة من هذه الشهادة:**

لم يكن هذا مجرد انبهار عابر، بل تحليل صادر عن خبير في اللغة والبيان؛ إذ وصف بنية الكلام وتأثيره وصفًا دقيقًا يكشف أنه أدرك تفرّد هذا النص عن كلام البشر، رغم مكانته بين فحول البلاغة في عصره.

- **خلاصة التحدي:**

لم يكن عجز العرب عن معارضة القرآن عجزَ أناسٍ لا يعرفون اللغة، بل كان عجزَ سادة البلاغة وأهل البيان في عصرهم. ولهذا بقي التحدي القرآني قائمًا عبر القرون:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سورة البقرة:23]

ومع مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا، لا يزال هذا التحدي مفتوحًا، دون أن يستطيع أحد أن يأتي بكلام يحمل خصائص القرآن نفسها في بيانه وتأثيره وبنائه الفريد.

سادسًا برهان التنزيه.. كيف أعاد القرآن للأنبياء هيبتهم؟

وهنا نصل إلى ملمحٍ في غاية الأهمية يثبت أن هذا الكتاب ليس من صنيع البشر؛ وهو موقفه من موكب الأنبياء عبر التاريخ.

فبينما نـجد في بعض الكتب السابقة – التي طالتها يد التحريف – قصصًا تُنسب للأنبياء لا تليق بآحاد البشر وتنتقص من قدرهم، جاء القرآن الكريم ليقف حارسًا لذاتهم المقدسة، مبرئًا إياهم من كل نقيصة.

لقد وصفهم القرآن بأنهم أهل الصبر، والإخلاص، والخلق العظيم، فجعلهم قدوات صالحة للبشرية.

وبرأ المسيح عيسى وأمه الصديقة، وموسى، وسليمان، وداود – عليهم السلام – من كل كذبٍ وافتراء نُسب إليهم قديمًا.

إن توقير جميع الرسل كشرط أساسي للإيمان هو برهان ساطع على أن المصدر إلهي واحد، وأن القرآن جاء ليصحح الانـحراف ويُهيمِن بالحق على ما سبقه.

والآن بعد أن استعرضنا عددًا من وجوه الدلالة التي يشهد بها القرآن الكريم على صدقه – من الإخبار بالغيب، إلى التحدي البياني، مرورًا بالحفظ والتواتر والإشارات الكونية – يبقى جانب آخر لا يقل أهمية عن سابقه؛ بل يُعد بمثابة "**الاختبار الممتد عبر الزمن**".

فهذا الكتاب لا يثبت صدقه بدليل واحد معزول، بل بمنظومة متكاملة من الحقائق التي تصمد أمام تغيّر العصور وتقدّم المعرفة، دون أن يظهر فيها ما يناقض أصلها أو يهدم بنيانها.

ومن هنا ننتقل إلى وجهٍ آخر من وجوه الدلالة: اتساق القرآن وصموده أمام تطور المعرفة البشرية.

سابعًا: صمود الحقائق (القرآن بلا خطأ واحد)

من أبرز ما يُستدل به على أن القرآن الكريم ليس نتاجًا بشريًا، بل وحيٌ من الله، هو اتساقه الداخلي وثباته عبر الزمن رغم تغيّر المعارف البشرية وتقدّم أدوات العلم.

تطور المعرفة وثبات النص:

على مدار أكثر من 1400 عام، تغيّرت النظريات العلمية وتطورت أدوات البحث من أبسط الملاحظات إلى أدق الأجهزة

الحديثة، ومع ذلك ظل النص القرآني ثابتًا دون أن يظهر فيه تعارضٌ واحد مع حقيقة علمية قطعية مستقرة.

القرآن بين الوحي والتصورات البشرية:

الفرق الجوهري بين الخطاب القرآني وغيره من النصوص التاريخية أو الأسطورية هو أن القرآن لم يُبنَ على تصورات زمنه أو معارف بيئته المحدودة..

بل جاء بخطاب كلي يتجاوز تلك التصورات، ويُحيل الإنسان دائمًا إلى التأمل في الكون وطلب المعرفة.

وهنا يظهر معنى مهم:

أن هذا الاتساق مع الحقائق الكونية التي يكتشفها الإنسان تدريجيًا ليس صدفة، بل مؤشرًا إضافيًا على أن مصدر هذا الكتاب ليس محدودية الإنسان،

بل علم خالق الإنسان والكون.

وبعد هذا العرض لعدد من وجوه الدلالة التي تنوعت بين الغيب، والبيان، والحفظ، والإشارات الكونية، وموقفه من التاريخ والأنبياء، تتجمع الصورة في ذهن القارئ لتطرح سؤالاً مركزيًا:

هل يمكن لمصدر بشري أن يجمع كل هذه السمات المتنوعة والمتسقة في آنٍ واحد؟

إن الإجابة التي يفرضها التأمل الهادئ هي أن هذه المنظومة من الدلائل تتكامل لتُشكّل برهانًا واحدًا على صدق هذا الكتاب، وأنه ليس كلام بشر، بل وحيٌ من اللّه.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

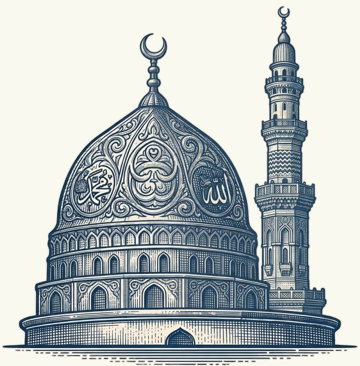
وأنت تقرأ هذه الأدلة، أيها ترك في قلبك أثرًا أعمق من غيره؟

وما الذي لفت انتباهك فيه؟

الفصل السابع

أدلة صدق الرسول الكريم

محمد ﷺ



بعد أن أبحَرْنا في فيض الأدلة التي تؤكد أن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ننتقل في رحلتنا هذه إلى محطة جوهرية ومحورية؛ وهي إثبات صدق نبوة الرسول الكريم محمد ﷺ.

ولعل القارئ يدرك بداهةً أن إثبات قدسية القرآن هو في ذاته إثبات لنبوة مَن أُنزل عليه، فالمعجزة شاهدة لَمَن جاء بها.

ومع ذلك..

فإن دلائل صدق المصطفى ﷺ من الوفرة والظهور بمكانٍ يدعونا إلى تخصيص مساحة واسعة لها من التأمل والتحليل؛ ليزداد المؤمن يقينًا، ويجد الباحث عن الحقيقة ضالته المنشودة.

إن الغوص في سيرة النبي ﷺ ودلائل نبوته يمنح النفس فوائد لا تحصى؛ فهي تغذي العقل بمتعة الاستدلال المنطقي، وتسلح المسلم بالحجة الدامغة والبرهان الساطع حين يحاور غير المؤمنين، كما أنها تزرع في القلب محبةً عميقة وتعلقًا وجدانيًا بشخص الرسول ﷺ حين يدرك المرء عظمة هذا الاصطفاء الرباني.

• أولاً: بشارات الأنبياء والكتب السابقة (وعد الله الذي لا يخلف)

لم تكن بعثة محمد ﷺ حدثًا مفاجئًا أو منقطعًا عن سياق الرسالات السماوية، بل كانت **بشرى** تناقلتها الأجيال، وصدحت بها ألسنة الأنبياء السابقين عليهم السلام قبل وقوعها بقرون مديدة.

إن مراجعة دقيقة لما تبقى في كتب أهل الكتاب من توراة وإنـجيل – **رغم ما طالها من يد التحريف** – تكشف لنا عن نصوص مذهلة تصف نبي آخر الزمان بتفاصيل دقيقة لا تقبل التأويل.

وهنا، نسلط الضوء على بعضٍ من تلك النصوص الشاهدة ..

1. خارطة الرسالات الكبرى (سفر التثنية 33: 2)[1]

ورد في العهد القديم نص يربط بين الأماكن المقدسة الثلاثة التي شهدت أعظم التحولات في تاريخ البشرية:

> "جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم".

وهذا التسلسل الجغرافي هو توثيق إلهي للرسالات؛ "سيناء" لموسى عليه السلام، و"سعير" (جبال بفلسطين) لعيسى عليه السلام، أما "فاران" فهي برية مكة كما نصت التوراة (سفر التكوين 21: 21)[1].

واستخدام لفظ "تلألأ" مع فاران يشير إلى تمام الضياء وعموم الشريعة التي جاء بها خاتم الأنبياء.

(1) الكتاب المقدس، العهد القديم، (ترجمة فانديك)، دار الكتاب المقدس.

2. نبي من بين "إخوتهم" (سفر التثنية 18: 18)[1]:

يخاطب اللّه موسى عليه السلام قائلاً:

> "أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه".

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل (العرب)، والوصف **مثلك** ينطبق على محمد ﷺ في بشريته، وزواجه، وقيادته، وشريعته الكاملة، بخلاف عيسى عليه السلام الذي كانت رسالته روحية متممة.

(1) التوثيق: الكتاب المقدس، العهد القديم، (ترجمة فانديك)، دار الكتاب المقدس.

3. دقة الوصف الجغرافي وجبل "سالع" (سفر إشعياء 42: 11)[1]:

لم تكتفِ البشارات بالوصف العام، بل غاصت في التفاصيل.

يقول النص في سفر إشعياء:

> "لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ.
> لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا ".

وعند تحليل هذا النص جغرافيًا وتاريخيًا، نـجد أن قيدار هو أحد أبناء إسماعيل – عليه السلام – وجدّ العرب الذين سكنوا الحجاز.

أما المفاجأة المذهلة في النص فهي لفظ "سَالِع"؛ وهو اسم الجبل الشهير المجاور للمسجد النبوي في المدينة المنورة، والذي دارت عنده معركة الخندق، وظل محتفظًا باسمه الصريح عبر آلاف السنين وحتى يومنا هذا!

(1) التوثيق: الكتاب المقدس، العهد القديم، (ترجمة فانديك)، دار الكتاب المقدس.

4. وحيٌ من جهة بلاد العرب (سفر إشعياء 21: 13-15)[1]

لا تقف الدقة عند ذكر الأسماء فحسب، بل يمتد الوصف ليشمل مشهدًا حركيًا عجيبًا، إذ يقول النص في سفر إشعياء تحت عنوان "وحيٌ من جهة بلاد العرب":

> فِي الْوَعْرِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ تَبِيتِينَ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ. هَاتُوا مَاءً لِمُلاَقَاةِ الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ. وَافُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ. فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ، وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ."

وعند إسقاط هذا النص على المشهد التاريخي للهجرة النبوية، نـجد تطابقًا مذهلاً؛ حيث يُشير النص إلى "تيماء" (وهي منطقة معروفة في شمال المدينة المنورة) حيث يُطلب من سكانها استقبال الهاربين بالماء والخبز، وهو التجسيد التاريخي الدقيق والمبهر لحادثة الهجرة النبوية واستقبال الأنصار لرسول الله ﷺ

---

(1) التوثيق: الكتاب المقدس، العهد القديم، (ترجمة فانديك)، دار الكتاب المقدس.

5. بشارة المسيح بالـ "بارقليط" (إنجيل يوحنا 16: 7-13)[1]:

في العهد الجديد، أكد المسيح عيسى عليه السلام أن رسالته ليست الأخيرة، بل قال:

> "لأنهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي (Paraclete)، وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ. ".

إن هذا الوصف (لا يتكلم من نفسه) هو أصل مفهوم الوحي في الإسلام: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النجم:3-4]

ومن المذهل فكريًا وعلميًا أن نعلم أن اللفظ اليوناني الأصلي الذي نُقلت عنه هذه البشارة هو (Periklytos)، وهو لفظ يعني لغويّاً: "المحمود" أو "الذي له حمدٌ كثير"، وهو ما يطابق في العربية اسْمَي (أحمد ومحمد) ﷺ، قبل أن يُحرّف في النسخ اللاحقة إلى لفظة (Parakletos) التي تعني "المعزي"

(1) الكتاب المقدس، العهد الجديد، (ترجمة فانديك)، دار الكتاب المقدس

النبوة كبناء مكتمل: إن إرسال محمد ﷺ لم يكن حدثًا عشوائيًا، بل كان ضرورة منطقية وتاريخية لاستكمال مسيرة الهداية البشرية. وكما أوضح الرسول ﷺ في حديثه الجامع حين شبه الأنبياء برجل بنى بيتًا فأتمه وجمله إلا موضع لبنة واحدة، فكان الناس يطوفون بالبناء ويعجبون لجماله لكنهم يتساءلون عن سر تلك اللبنة الناقصة، فقال ﷺ: **(فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتِمُ النَّبيِّين)**[1].

هذا التصوير يبرز أن الإسلام ليس دينًا بدعًا أو غريبًا عن نواميس الرسالات السابقة، بل هو الخاتم والتمام الذي وضع اللبنة الأخيرة في صرح التوحيد؛ مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة: الأحقاف:9].

(1) أخرجه مسلم.

• ثانيًا: الإخبار بالغيوب.. (برهانٌ يتجاوز حدود الزمن)

إن من أعجب البراهين العقلية والتاريخية على صدق نبوة محمد ﷺ إخباره بأمورٍ غيبية ومستقبلية يستحيل على البشر - مهما بلغ ذكاؤهم أو خبرتهم - أن يحيطوا بها على هذا الوجه الدقيق.

وما يمنح هذا البرهان قوته المنطقية القاطعة، أن هذه النبوءات قد دُوِّنت وسُجلت في كتب السنة النبوية المعتمدة - كصحيحي البخاري ومسلم - قبل وقوع كثيرٍ منها بقرون طويلة، مما يقطع الطريق أمام الزعم بأنها كُتبت بعد وقوع الأحداث أو أُعيدت صياغتها لاحقًا.

لقد جاءت هذه الإخبارات بوضوحٍ وجزم لا يحتملان التخمين؛ لأن أي خطأ في هذا النوع من التحدي كان كفيلاً بأن يهدم دعوته من أصلها، لكنه ﷺ كان ينطق بوحيٍ يوحى.

*** نبوءات قصيرة المدى** (أحداثٌ تتحقق في أيام وسنوات معدودة)

في بيئةٍ مليئة بالصراعات، أعلن النبي ﷺ عن أحداثٍ قريبة وقعت بدقة متناهية. فقبل معركة بدر الكبرى - وهي أول مواجهة حاسمة بين المسلمين وقريش - وقف النبي ﷺ يحدد لأصحابه مصارع طواغيت قريش وقادتهم، مشيرًا بإصبعه إلى

مواضعهم على الأرض واحدًا تلو الآخر، مؤكدًا يقينًا أن هذا الموضع سيكون مقتل فلان، وذاك مقتل فلان. ثم وقعت الأحداث في اليوم التالي كما أخبر تمامًا، فلم يتجاوز أحدٌ منهم الموضع الذي حدده ﷺ قيد أنملة[1].

ولم تكن تلك حادثة منفردة؛ فقد أخبر ﷺ بهبوب ريح شديدة في ليلةٍ محددة من ليالي غزوة تبوك، وحذر الجيش منها وأمرهم باحتياطات معينة، فوقعت كما وصفها تمامًا.

وعلى الصعيد الشخصي، بشّر ابنته فاطمة رضي الله عنها بأنها أول أهله لحوقًا به بعد وفاته، فكان الأمر كما قال بعد ستة أشهر فقط من انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

(1) للاطلاع على نصوص الأحاديث النبوية المذكورة في هذا الفصل مع تخريجها وشرحها بالتفصيل، يمكنكم زيارة الملف الملحق عبر الرابط التالي: رابط ملحق الأحاديث
أو مسح رمز الاستجابة السريعة (**QR Code**) أدناه للوصول إليه عبر النسخ المطبوعة.

كما أخبر أن سبطه الحسن بن علي – رضي الله عنهما – سيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتحقق ذلك تاريخيًا بعد سنوات، وكان سببًا في حقن دماءٍ وفتنةٍ كادت تعصف بالأمة.

بل وحدد ﷺ مدة الخلافة الراشدة التي ستعقب نبوته بدقةٍ مذهلة قائلاً إنها ثلاثون سنة، فجاء مجموع خلافة الخلفاء الأربعة مع الشهور الستة لولاية الحسن بن علي مطابقًا تمامًا للمدة التي حددها.

* المستقبل البعيد.. حين يصبح الغيب تاريخًا

بينما كان المسلمون في مراحل الاستضعاف والابتلاء الأولى، لا يملكون حماية أنفسهم، جاءت البشرى النبوية بفتح الشام، ومصر، والعراق، واليمن. وبسقوط عروش إمبراطوريتي فارس والروم، القوتين العظميين آنذاك أمام زحف المسلمين.

جاء ذلك في تحدٍّ صارخ لكل المقاييس المادية المعاصرة، لتتحول هذه النبوءات لاحقًا إلى حقائق تاريخية مشهودة، وبدقة متناهية كما أُخبر بها تمامًا.

ومن الدلائل الغيبية المذهلة التي تجلت بعد قرون، وصفه ﷺ الدقيق لملامح أقوامٍ لم ترهم عينٌ عربية قط، ولم يكن لعرب الحجاز عهدٌ بأشكالهم.

لتثبت الوقائع التاريخية لاحقًا أنهم التتار الذين اجتاحوا العالم الإسلامي؛ حيث تطابقت سماتهم الجسدية المذكورة في النص النبوي مع الواقع بدقة لافتة، وفي عصرٍ انعدمت فيه كل وسائل التواصل التي تتيح معرفة مثل هذه التفاصيل السلالية الدقيقة.

ومن الأحاديث التي تتجاوز حدود الزمن لتلامس واقعنا اليوم، وصفه ﷺ لحال الأمم حين تتداعى على المسلمين، كما تتداعى الأَكَلَة إلى قصعتها. لا لقلةٍ في عددهم، بل لكثرةٍ عددية منزوعة الأثر كغثاء السيل، بسبب داء **الوهن** الذي شخّصه النبي ﷺ بدقة بأنه: حب الدنيا وكراهية الموت؛ وهو وصفٌ يتجسد اليوم بوضوحٍ تام في واقع الأمة المعاصر.

وفي إشارةٍ نبويةٍ بليغة، ورد في الحديث الصحيح الثناءُ على الرباط في عسقلان، والتي تمثل مدينة غزةُ الفلسطينية اليوم امتدادًا جغرافيًا وتاريخيًا لها.

إذ جاء هذا الثناء في زمنٍ لم يكن للمسلمين فيه موطئ قدمٍ في تلك الديار، لتتحول هذه البقاع لاحقًا – عبر امتداد التاريخ – إلى واحدةٍ من أهم ثغور المسلمين المتقدمة، وحصونها الصامدة.

ومما يستوقِف المتأمل في بعض الأحاديث النبوية، وصفُها لتحولاتٍ اجتماعية واقتصادية وحضارية تتقاطع بشكلٍ وثيق مع معطيات واقعنا المعاصر، ومنها:

تقارب الزمان: كما في الأحاديث التي تتحدث عن شعور الناس بسرعة انقضاء الأيام وفقدان البركة في الوقت رغم تطور وسائل الراحة.

تقارب الأسواق: وهو وصفٌ نبوي يُقرأ بدقة في سياق عالم العولمة والتجارة الإلكترونية العابرة للحدود، التي دمجت الأسواق العالمية في فضاء واحد.

عمران مكة: والمتمثل فيما تنبأت به الأحاديث ونشهده اليوم من شقٍ للجبال وتمددٍ للعمران فوق المرتفعات، مواكبةً للهوية المعمارية الحديثة المحيطة بالحرم.

تغير وسائل التنقل: كالأحاديث التي تشير إلى ظهور وسائل نقل تحمل الناس بسرعات هائلة ولمسافات بعيدة، تفصلهم عن عصر الدواب والجمال.

اضطراب المعايير: والمتمثل في الإشارات النبوية لبروز فئة من التافهين وتوجيههم للرأي العام (**الرويبضة**)، مقابل تراجع مكانة أهل العلم؛ وهي ملامح تتجلى أبعادها في بنية الإعلام المفتوح ومنصات التواصل الاجتماعي.

* حين تتجاوز النبوءة حدود المصادفة

بعد أن استعرضنا تلك الدلائل الغيبية المذهلة – وما سُقناهُ من هذه النماذجِ في التاريخِ والاجتماعِ والسياسةِ، ليس إلا غيضًا من فيضٍ وأمثلةً معدودةً؛ إذ إنَّ الباحثَ المتأملَ في نصوص السنة النبوية سيقف على شواهدَ لا حصر لها، تُثبت أن هذا النمطَ من الإخبار هو منهجٌ مطردٌ وليس استثناءً – سنخلصُ إلى أن اجتماعَ هذا الكمِّ من الإخباراتِ الدقيقةِ – القريبةِ منها والبعيدةِ – في بيئةٍ أميةٍ معزولةٍ عن أدواتِ التنبؤِ والتحليلِ الحضاريِّ، ثم تحققها عبر القرونِ بهذا الاتساقِ، يجعل تفسيرها بالمصادفةِ أو الذكاء البشريِّ وحده تفسيرًا بالغَ الهشاشة.

فحين يُخبر إنسانٌ بالمستقبلِ مرةً قد يُقال: **مصادفة**.

وحين تتكرر الإصاباتُ قد يُقال: **فراسةٌ** أو حسنُ تقدير.

أما حين تمتدُّ هذه الإخباراتُ لتشملَ الحروبَ، والسياسةَ، والتحولاتِ الاجتماعيةَ، وأحوالَ الأممِ عبر قرونٍ طويلةٍ، ثم تقعُ بهذا التوافقِ المدهشِ؛ فإنَّ التفسيرَ الأكثرَ منطقيةً واتساقًا هو أنَّ هذا النبيَّ ﷺ كان مؤيدًا بوحيٍ من عند الله.

ثالثًا: الحقائق العلمية.. (الوحي يسبق المختبر)

أخبرَ النبي ﷺ بحقائق كونية وطبيعية لم يتوصل إليها العلم الحديث إلا بعد قرون طويلة، ومن خلال أدوات وتقنيات متطورة لم تكن تخطر على بال بشر يعيش في قلب بيئة صحراوية معزولة:

⁕ ثبات كمية المطر السنوية:

ورد في الأثر عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –، وهو من الأخبار التي لها حكم الرفع، قوله: (**مَا مِنْ عَامٍ بِأَقَلَّ مَطَرًا مِنْ عَامٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**)[1]، وهذا ما يقره العلم الحديث اليوم من خلال دراسة الدورة الهيدرولوجية للمياه؛ حيث أثبتت الأرصاد والفيزياء الكونية أن إجمالي كمية المياه المتبخرة من المحيطات والبحار، والتي تعود للهطول كأمطار وثلوج على كوكب الأرض، هي كمية ثابتة ومحفوظة رياضيًا كل عام، وإنما يصرفها الله ويوزعها جغرافيًا في الأرض كيف يشاء.

⁕ الإنسان أحدث الكائنات خلقًا:

أشارَ النبيُّ ﷺ في سياقِ حديثهِ عن مراحلِ الخلقِ إلى أنَّ الإنسانَ هو آخرُ الأحياءِ ظهورًا على الأرض؛ حيثُ جاءَ في الحديثِ الشريفِ: «... **وخَلَقَ آدَمَ عليه السَّلامُ بَعدَ العَصرِ مِن يَومِ الجُمُعةِ، في آخِرِ الخَلقِ**»[2]؛ وهي الحقيقة التي تنطقُ بها

---

(1) أخرجه البيهقي.

(2) أخرجه مسلم.

اليوم السجلات الجيولوجية والأحفورية، التي تُؤكِّد أنَّ ظهور الإنسان جاء متأخرًا جدًا في السلسلة الزمنية، وذلك بعدَ تهيئة الأرض وتعاقب الكائنات الأخرى.

* **علم الأجنة والامتزاج الخلوي:** في زمنٍ ساد فيه علم الطب اليوناني، وكان يعتقد فيه فلاسفة كبار مثل أرسطو وأبقراط أن الجنين يتخلق فقط من دم الحيض، جاء النبي ﷺ ليقرر بوضوح أن الإنسان يُخلق من نطفة الرجل ونطفة المرأة معًا (النطفة الأمشاج/ المختلطة).

وهي حقيقة لم يستطع العلم البشري إثباتها إلا بعد اختراع المجاهر المعقدة في أواخر القرن الثامن عشر، لتتأكد حتمية اندماج الحيوان المنوي بالبويضة.

* **حديث الذبابة والمضادات الحيوية:**

أخبر النبي ﷺ عن حقيقة بيولوجية حين قال:

(إذا وقَعَ الذُّبابُ في شَرابِ أحَدِكُم فليَغمِسْه ثُمَّ ليَنزِعْه؛ فإنَّ في إحدى جَناحَيه داءً، والأُخرى شِفاءً)[1].

---

(1) أخرجه البخاري. وتجدر الإشارة إلى أن الغاية من هذا التوجيه النبوي هي التخلص من ضرر الذبابة عبر موازنة الداء بما تحمله من دواء؛ ومع ذلك، فإن المسلم ليس ملزماً بتناول هذا الشراب إذا نفرت منه نفسه أو أصابه التقزز، فله تركه والتخلص منه دون حرج أو إثم.

وطالما كان هذا الحديث مادة للسخرية والتشكيك، حتى دارت عجلة المختبرات الحديثة لتكشف أن الأسطح الخارجية لأجسام الذباب وأجنحتها تحتوي على كائنات دقيقة (فطريات وبكتيريا نافعة) تفرز مضادات حيوية قوية للغاية، قادرة على إبادة سلالات من البكتيريا المرضة؛ فالغمس يؤدي إلى إطلاق هذه المضادات الحيوية في السائل لتبطل مفعول الداء.

وهذه الإشارات لا تُذكر باعتبارها كتابًا في الفيزياء أو الطب، فالقرآن والسنة ليسا كتبًا تجريبية، وإنما لأنها تأتي ضمن منظومة واسعة من الدلالات التي تجعل من الصعب تفسير هذا الكم من الإشارات الدقيقة على أنه مجرد مصادفة أو ثقافة بشرية محدودة في ذلك العصر.

رابعًا: براهين النزاهة الشخصية (النبي الإنسان)

ومن أقوى ما يشهد لصدق النبي ﷺ ويقود العقل لتأمله بإنصاف: النظرُ في سيرته العملية والتحليل النفسي لشخصيته الإنسانية.

فالكاذبون أو أصحاب المشاريع الشخصية عادةً ما يصنعون لأنفسهم صورة مثالية تخلو من مواطن الضعف أو المراجعة، ويحرصون على إحاطة ذواتهم بهالة من الكمال البشري.

أما النبي الكريم محمد ﷺ فقد نُقلت سيرته بأدق تفاصيلها الإنسانية، وجاء الوحي نفسه يتضمن ما يثبت بشريته ويعاتبه في بعض الاجتهادات والمواقف.

آيات العتاب وأمانة التبليغ:

لو كان القرآن من تأليف النبي محمد ﷺ ومحض صياغة شخصية منه، لكان من الطبيعي نفسيًا ومنطقيًا أن يُظهر نفسه دائمًا في صورة القائد الذي لا يخطئ في تقدير، أو الزعيم الذي لا يُراجع في قرار. لكن القرآن سجّل مواقف عتابٍ علنية واضحة تُتلى إلى يوم القيامة، مثل قوله تعالى في قصة ابن أم مكتوم:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [سورة عبس:1-2].

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة التوبة: 43]

إن بقاء هذه الآيات وتدوينها ونقلها بين أتباعه، يُعد من أعظم الدلائل العقلية على أمانته المطلقة في التبليغ..

فهو لم يكن مالكًا للنص أو مؤلفًا له ليحذف منه ما قد يُفهم منه انتقاصٌ لمقامه

البشري، بل كان ناقلًا أمينًا للوحي كما أُنزل إليه من ربه،

حتى وإن تضمّن عتابًا له ﷺ.

الزهد المطلق وغياب المكاسب الدنيوية:

عاش النبي ﷺ حياة في غاية البساطة والزهد، ولم يتغير هذا الحال حتى بعد أن دانت له الجزيرة العربية واستقرت له أسباب القوة والتمكين والسيادة.

لقد عُرضت عليه في بدايات دعوته مظاهر الملك والمال والجاه فرفضها ثباتًا على المبدأ، وعاش ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه، وتمر الأهلة والشهور ولا يوقد في بيته نار.

والمذهل هنا هو التناقض الصارخ بين واقعه الشخصي المتقشف، وبين حجم الأموال والغنائم التي كانت تمر بين يديه بعد الفتوحات والانتصارات؛ فكان يوزعها بسخاء من لا يخشى الفقر، دون أن يستأثر منها بشيء، أو يبني لنفسه قصرًا، أو يورث لأهله ملكًا وثروة. بل مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل صاعٍ من شعير لأهله.

إن هذا التجرد الكامل من حظوظ النفس والمكاسب المادية ينسف تمامًا فرضية أن دعوته كانت مشروعًا شخصيًا للسلطة أو جمع الثروة؛ إذ لا يوجد قائد على وجه الأرض يربط على بطنه الحجر من الجوع، وهو يملك زمام أمة وتُجبى إليه أموالها.

وحين تُجمع هذه الدلالات كلها: صدقُ الأخبار، واتساقُ الرسالة، وأمانةُ التبليغ، وتجردُ صاحبها من المكاسب الدنيوية، يصبح من الصعب تفسير شخصية محمد ﷺ باعتبارها مجرد عبقرية بشرية أو مشروعٍ دنيوي عابر.

بل إن الصورة الكاملة تقود العقل المنصف إلى نتيجة واحدة: أن هذا النبي كان صادقًا فيما بلّغه عن ربه.

خامسًا: التكاليف والمعجزات الحسية

* لو كان الإسلام دعوةَ مدّعٍ أو صاحب مشروع دنيوي يسعى لاجتذاب أكبر عدد من الأتباع والأنصار، لكان من المتوقع والمنطقي أن يخفف التكاليف، ويطلق الشهوات، ويجامل رغبات الناس ونوازعهم البشرية ليرغبوا فيه.

لكن الواقع التاريخي يثبت أن الإسلام جاء بمنظومة تكاليف صارمة على النفس؛ كالصلاة في أوقات محددة، والصيام، والجهاد، وغض البصر، وبذل المال، وقطع الصلة بكثير من اللذات المحرمة التي كانت متجذرة في البيئة الجاهلية.

والمذهل أن الأتباع لم يمتثلوا لهذه التكاليف فحسب، بل تمسكوا بها في أحلك ظروف الخوف، والجوع، والمطاردة؛ وهي أمور لا يمكن للنفس البشرية أن تثبت عليها، أو تضحي بحياتها ومالها لأجلها، إلا إذا خالطت بشاشة اليقين قلوبهم، وتيقنوا يقينًا مطلقًا أن هذا الدين حق، وأن الرسول ﷺ صادق أمين يبلغ عن رب العالمين.

* المعجزات الحسية (شواهد خارقة للعادة):

كما أيّد الله رسوله ﷺ بالبراهين العقلية، فقد أيّده كذلك بمعجزات حسية مشهودة عاينها المعاصرون له لتكون حجة عيانٍ مباشرة.

ومن أشهر هذه المعجزات حادثة **انشقاق القمر** التي نقلتها الروايات الإسلامية نقلاً مستفيضًا ومتواترًا عند أهل العلم، وارتبطت بنزول نص قرآني قاطع يُتلى علنًا ويتحدى المنكرين: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [سورة القمر:1].

وحين ننظر إلى هذه الحادثة بعين التحقيق، نجد أن الاعتماد الأساسي في إثباتها قائم على هذا التواتر التاريخي الصلب في السيرة النبوية، مع وجود توثيق تاريخي متطابق في حضارات أخرى خارج التراث الإسلامي (كالمخطوطات في الهند والصين) سجلت رصد هذه الظاهرة في ذات الحقبة الزمنية، آخذين في الاعتبار اختلاف مطالع الليل والنهار وحالة الطقس بين بلدان العالم التي تجعل رصد حدث سماوي عابر غير متاح لكل البشر في آن واحد.

ومن المعجزات الحسية أيضًا؛ معجزة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ في مواطن العطش والشدة، وهي معجزةٌ عاينها مئاتُ الصحابةِ ونقلوها إلينا بتواترٍ لا يداخلهُ شك، حيث تدفقَ الماءُ غزيرًا من بين كفيه ليُروي جيشًا كاملاً، في مشهدٍ حسيٍّ مباشرٍ يكسرُ نواميسَ الطبيعةِ المعتادةِ، ويُقدمُ دلالةً ملموسةً على التأييدِ الإلهي لهذا النبيِّ الكريم.

ولا تنحصرُ المعجزاتُ في هذين المشهدين؛ إذ حفلت السيرة النبوية بنماذجَ عديدةٍ من الشواهدِ الحسيةِ الأخرى ، مثل: حنين الجذع، وتسبيح الحصى في كفه، وشفاء المرضى ببركة دعائه، وإشباع الجمع الكثير من الطعام القليل، وغيرها وغيرها الكثير مما لا يتسع المقام لحصره، ولكنها جميعًا تشكل في مجموعها نسقًا متصلاً من الشواهد التي تظاهرت على صدق نبوته ﷺ.

سادسًا: الإعجاز الخُلُقي (وإنك لعلى خُلق عظيم)

إذا كان الناس يلتمسون البراهين العقلية والحسية في الآفاق والكلمات، فإن فريقًا كبيرًا من العقلاء آمنوا بمجرد رؤية النبي ﷺ أو التعامل معه؛ إذ لم تكن الدلالة في ما نطق به فقط، بل في شخصه وسلوكه الذي جسّد الرسالة حيةً تسعى بين الناس.

إن الثبات الأخلاقي للنبي ﷺ في مختلف الأحوال وتقلباتها هو من أعظم وجوه الدلالة على صدقه؛

فالأخلاق قد تصطنعها النفس في لحظات الرخاء أو لغرض القبول، لكنها لا تُحافظ على نسقها الرفيع والشامخ في تقلبات الحياة العنيفة بين الشدة والرخاء، والانتصار والابتلاء، ومع الموافق والمخالف، كما ثبت عنه ﷺ في تفاصيل حياته كافة:

* **الصدق والأمانة (بشهادة الخصوم):** قبل البعثة، كان ﷺ يُعرف بين قومه بـ "الصادق الأمين"، وهي شهادة استمرت ناصعة حتى مع اشتداد الخصومة بعد الرسالة.

والمفارقة المذهلة هنا أن قريشًا – رغم تكذيبها العلني له ومحاربته – بقيت تضع عنده ودائعها وأماناتها النفيسة لعلمها بأمانته، حتى إنه ﷺ لم يهاجر إلا بعد أن أقام عَليًا بن أبي

طالب ليرد الأمانات إلى أصحابها المحاربين له!

وقد تجلى هذا الصدق في إقرار أبي سفيان (وهو يومئذٍ رأس الخصومة) أمام هرقل عظيم الروم حين سأله: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟" فقال أبو سفيان: "لا"، ليعلق هرقل بعبقرية سياسية وعقلية: «فقد عرفتُ أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله».

* **العفو عند المقدرة والتسامي عن الانتقام:** عند فتح مكة، وبعد سنوات طويلة من الأذى الشديد، والتعذيب لأصحابه، والحصار الاقتصادي والقتال، دخل النبي ﷺ عاصمتهم منتصرًا بجيش جرار دانت له الأرض.

وفي لحظة اكتمال القوة والتمكين التي يباد فيها الأعداء عادةً، اختار طريق العفو والصفح التام بدلاً من الانتقام؛ فأنزل خصومه منازل العفو وأطلق سراحهم، مُنهيًا بذلك صفحة طويلة من الصراع. إن هذا الموقف يعكس بجلاء أن الغاية لم تكن يومًا سلطةً أو تشفيًا، بل كانت سموًا أخلاقيًا يهدف إلى هداية القلوب وإحياء النفوس.

* **الثبات وبرهان اليقين المطلق:** في مواقف الخطر الوجودي، كان ﷺ يثبت ثباتًا لا يهتز، وهو ثباتُ القائدِ الواثقِ بتأييدِ ربه. فبينما يميلُ قادةُ الجيوش في لحظاتِ الحرجِ إلى التخفي أو الحذرِ لحمايةِ هوياتهم، كان النبي ﷺ يفعلُ النقيضَ تمامًا؛ إذ انطلق في غزوةِ حنين، حين اضطربت الصفوفُ وتراجعَ الجيشُ تحت وطأةِ المفاجأة، راكبًا بغلتَه نـحو السهام، مُوجِّهًا صدرَه للعدو، ومُعلنًا عن هويتِه بكلِّ عزةٍ ليجمعَ شتاتَ قلوبِ أصحابه، صارخًا بصوتٍ كالهزيم: «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبدِ المطلب».

ومن أبلغ دلائل طمأنينته بوعد الله، أنه بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [سورة المائدة:67]، أمر حراسه الذين كانوا يحرسون خيمته بالانصراف قائلاً: «أيها الناس انصرفوا عني، فقد عصمني الله».

وظل من بعدها يعيش بين الناس دون تكلف حراسة شخصية، في بيئة تملؤها الاغتيالات والمؤامرات، وهو تصرف يستحيل أن يصدر عن رجل يصنع دعوة من عنده، بل هو يقين الأمان الإلهي.

* **كمال التواضع وبساطة العيش:** كان ﷺ في حياته اليومية قريبًا جدًا من الناس، يخدم نفسه، ويخصف نعله، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، حتى إن الرجل الغريب كان يدخل المسجد فلا يميّزه من بين أصحابه حتى يسأل:

"أيكم محمد؟". ومن أعظم مواقف تواضعه أنه جاءه رجل فكلمه، فأخذته الرِّعْدة هيبةً من مقام القيادة، فقال له ﷺ ملطفًا ومطمئنًا: «**هَوِّن عليك، فإني لستُ بملِكٍ، إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش كانت تأكل القَديدَ***»[1].

لقد جمع في شخصيته بين هيبة القيادة العظمى، وبساطة الإنسان العادي، دون تكلف أو استعلاء.

---

(1) أخرجه الطبراني.

(*) القديد: اللحم المجفف، وهو دلالةٌ على بساطة العيش؛ فلم يكن يوماً طعامَ الأغنياءِ والمترفين.

سابعًا: الرحمة المهداة.. حين فاض عطاؤه ليشمل الكون

لقد جلّى الله عز وجل رسالة نبيه ﷺ في غايتها الكبرى بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء:107].

ولم تكن هذه الرحمة مجرد شعار نظري يُتلى، بل كانت واقعًا سلوكيًا حيًا ودقيقًا، امتد ليشمل الضعفاء، والنساء، والأطفال، بل وتجاوز الإنسان ليفيض على الحيوان والطير.

* **رقة القلب مع الأطفال والضعفاء:** كان النبي ﷺ شديد الرحمة بالصغار، يراهم موضع عناية ولطف لا إهمال وتهميش. وكان يُعرف عنه تخفيف العبادة المفروضة (كالصلاة) إذا سمع بكاء صبي؛ مراعاةً لقلب أمه المشغولة عليه. ومن أبهى صور هذه الرحمة، إطالته لزمن السجود في الصلاة حين ارتحله (ركب على ظهره) أحد أحفاده، فلم يقم حتى نزل الطفل برفق؛ في مشهد يبرز كيف تتجلى عظمة الرحمة الإنسانية في أقدس لحظات العبادة والاتصال بالله.

* **إنصاف النساء والرفق بهن:** في بيئة جاهلية معقدة كانت فيها المرأة تُظلم وتُهمَّش، جاء الإسلام ليعيد لها مكانتها الإنسانية والاجتماعية كشريكة كاملة؛ فقال النبي ﷺ مقررًا هذه القاعدة: «**إنما النِّساءُ شقائقُ الرِّجالِ**»[1]، وأوصى بهن في خطبته الختامية للأمة (خطبة الوداع): «**استوصوا بالنساء خيرًا**»[2]. وفي بيته، كان ﷺ نموذجًا للزوج اللطيف، يمازح زوجاته، ويساعدهن في شؤون المنزل، ويُظهر المودة والرفق في تفاصيل الحياة اليومية والسفر، متجاوزًا عقلية الجفاء السائدة في عصره.

* **الرحمة الاجتماعية والوفاء للأصحاب:** كانت معاملته لأهل بيته وأصحابه قائمة على اللطف، وجبر الخواطر، وتقدير المشاعر. ولم يكن ﷺ قائدًا معزولاً في برج عاجي، بل كان يتفقد أصحابه، ويعود مرضاهم، ويواسي حزينهم، ويشاركهم أوقاتهم.

---

(1) أخرجه أبو داود.

(2) أخرجه البخاري.

ولم يُذكر عنه طوال حياته أنه جرح مشاعر أحد أو عاب خطأً غير مقصود، وفي هذا يقول خادمه أنس بن مالك الذي لازمه عشر سنوات: «**خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أُفٍّ قط، ولا قال لشيءٍ صنعتُه: لمَ صنعتَه؟ ولا لشيءٍ تركتُه: لمَ تركتَه؟**»[1].

لقد جعل كل فرد في المجتمع يشعر بأنه الأقرب إلى قلبه الشريف.

* **رحمة تتجاوز الإنسان إلى الحيوان والطير:** امتدت هذه المظلة الرحيمة لتشمل الكائنات العجماء التي لا تملك إفصاحًا عن ألمها؛ فنهى ﷺ عن إتعاب الدواب، أو تجويعها، أو اتخاذها هدفًا للرمي، أو كيّها بالنار.

ومن مواقف الرحمة المشهودة، أنه دخل نخلاً لبعض الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ ذرفت عيناه، فمسح النبي ﷺ خلف أذنيه حتى سكن، ثم وعظ صاحبه قائلاً:

(1) أخرجه البخاري.

«أفلا تتَّقي اللهَ في هذه البهيمةِ الَّتي ملَّكك اللهُ إيَّاها؛ فإنَّه شكَى إليَّ أنَّك تُجيعُه وتُدئِبُه*»[1].

وفي موقف آخر، أمر برد فرخي طائر صغير إلى أمهما بعد أن رآها ترفرف بجناحيها فزعًا، قائلاً بغضب: **«مَن فجعَ هذِهِ بولدِها؟ ردُّوا ولدَها إليها»**[2].

إن هذا النسق الشامل والمتكامل من الرحمة واللطف الدقيق – الذي يربط بين إصلاح العقيدة وإصلاح المشاعر تجاه الحيوان والطير – يجعل من شخصية محمد ﷺ نموذجًا إنسانيًا فريدًا في تاريخ البشرية، قائمًا على البناء لا الهدم، وعلى الرحمة لا القسوة، مما يؤكد أن مصدر هذا الخلق هو وحي إلهي صبغ هذه النفس برحمة من الله.

---

(1) أخرجه أبو داود.

(2) أخرجه أبو داود.

(*) تُدئِبُه: تُتعِبُه.

ثامنًا: برهان الأثر المستمر (عظمة المنهج والصمود التاريخي)

إن أي أطروحةِ إصلاحٍ بشرية، أو أيديولوجيةٍ وضعية، غالبًا ما تتأثر بحركة الزمن؛ فتضعف، أو تتراجع، أو تتلاشى مع تبدّل الظروف، وتطوّر المعارف البشرية، وسقوط القوى الحامية لها.

أما الإسلام، فقد حافظ عبر أكثر من أربعة عشر قرنًا على حضوره، واستمراره، وانتشاره المتنامي في بيئات، وثقافات، وقارات شديدة التنوع، دون أن يفقد هويته أو جوهر أصوله.

* **الصمود الاستثنائي أمام النقد والتحولات:** تعرض الإسلام عبر تاريخه الطويل لشتى أنواع النقد، والجدل الفكري الصارم، والموجات الارتدادية، والصراعات السياسية والعسكرية العنيفة. ومع ذلك، لم ينزوِ أو يتراجع، بل استمر كأكثر الأديان حيوية وحضورًا.

والمفارقة التاريخية الفريدة هنا، هي أن الإسلام كان ينشر أنواره ويبهر العقول حتى في أحلك فترات ضعف المسلمين سياسيًا وعسكريًا؛ كما حدث حين اجتاح التتار بغداد، فما لبث المنتصر العسكري (التتار) أن اعتنق دين الأمة المغلوبة (الإسلام) في ظاهرة تاريخية تكاد تكون منعدمة النظير، مما يثبت أن قوة هذا الدين كامنة في ذاته وحقائقه، لا في القوة المادية التي تحميه.

تاسعًا: شهادات المنصفين من غير المسلمين (شاهدٌ من أهلها)

أحيانًا تكون شهادة الآخر المحايد - الذي لا ينطلق من عاطفة دينية أو انحياز مسبق - دليلاً عقليًا بالغ القوة والتأثير في نفس الباحث عن اليقين.

وحين نطالع بعض كتابات كبار فلاسفة الغرب، ومؤرخيه، ومفكريه الذين درسوا السيرة النبوية بعين الفحص والإنصاف، نجد إقرارًا مذهلاً بعظمة هذه الشخصية واستثنائيتها في تاريخ البشرية:

* **المؤرخ والعالم الأمريكي "مايكل هارت"**[1] (صاحب كتاب الخالدون مائة): حين وضع النبي ﷺ على رأس قائمته التاريخية كأعظم شخصية أثرت في مسيرة البشرية قاطبة، لم يكن ذلك انحيازًا، بل برره بعبارة منطقية صارمة قائلاً: *"إن اختياري محمداً ليكون في رأس القائمة ربما أذهل كثيراً من القراء، ولكنه الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقاً على المستويين الديني والدنيوي"*.

---

(1) انظر: مايكل هارت، الخالدون المائة (***The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History***): ترتيب أكثر مئة شخصية تأثيراً في التاريخ. (وللتوسع في هذا الباب، يُنصح بالرجوع إلى الدراسات التي وثقت آراء المفكرين غير المسلمين في الحضارة الإسلامية).

وهو اعتراف بأن هذا الجمع بين القيادة الروحية والنجاح الحضاري والسياسي الفائق هو حالة فريدة لا تتكرر في التاريخ البشري.

◈ الأديب والفيلسوف الإيرلندي "جورج برنارد شو" [1]

(الحائز على جائزة نوبل):

هذا الفيلسوف وقف وقفة إنصاف وتأمل لواقع البشرية ومآلاتها، فقد نُقل عنه أنه قال:

"إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي لو تولى أمر العالم اليوم، لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو إليها البشر".

وفي موضع آخر وصفه بأنه "منقذ البشرية"، وهي شهادة تعكس أن المنهج الذي جاء به ﷺ يحمل حلولاً حقيقية مستدامة لصالح الإنسان في كل عصر.

---

(1) جورج برنارد شو (1856-1950م): أديب ومسرحي أيرلندي. عبّر في عددٍ من محاضراته ومقالاته -أبرزها محاضرته التي ألقاها في لندن عام 1933م بعنوان (الإسلام)- عن إعجابه العميق بالرسالة المحمدية، مشيداً بنظرة الإسلام العقلانية وقدرته على مواكبة متطلبات العصور. (للاطلاع على النص الكامل لآراء برنارد شو في شخصية النبي ﷺ، يمكن الرجوع إلى المراجع الأرشيفية الموثقة للمفكرين الغربيين المنصفين).

* **المفكر والفيلسوف الإسكتلندي "توماس كارليل"**[1]:

في كتابه الشهير "الأبطال"، ردّ بقوة على الافتراءات الغربية القديمة التي حاولت اتهام النبي بالكذب، فتعجب من تفاهة هذا الطرح قائلاً:

"من العار أن يصغي إنسان متمدن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين بأن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خدّاع ومزور.. كيف لرجل كاذب أن يؤسس أمة، ويجمع شتات العرب، ويخرجهم من الظلمات إلى النور؟ إن الكذب لا يبني شيئاً؛ البيت من قش لا يمكنه الصمود لقرون، فكيف بهذه الرسالة التي عاشت وتمددت؟!".

---

(1) انظر: توماس كارليل، الأبطال (*On Heroes, Hero-Worship, and The Heroic in History*)، وهي سلسلة محاضرات ألقاها كارليل عام 1840م، خصص إحداها للحديث عن "البطل في صورة نبي" (محمد ﷺ)، مفنداً فيها بإنصافٍ ادعاءاتِ المستشرقين المعاصرين له. (للاطلاع على المراجعات النقدية لهذا الكتاب ومكانته في الفكر الغربي، يمكن الرجوع إلى المكتبات الرقمية الأرشيفية).

إن هذه الشهادات، وغيرها المئات من شهادات فلاسفة الشرق والغرب، لا تزيد النبي ﷺ رفعة، لكنها تقدم حجة عقلية واضحة للباحث عن الحق: أن عظمة هذا المنهج وسطوعه كانا من الوضوح بحيث أجبرا عقول المنصفين من غير المسلمين على الشهادة بصدقه وعظمته.

عاشرًا: معجزة "الرجل الواحد" (تغيير مجرى التاريخ)

لو نظرنا إلى موازين القوى المادية في فجر الرسالة، لوجدنا أن النبي ﷺ بدأ دعوته "وحيدًا" فردًا، في مواجهة عالمٍ يموج بالوثنية، والظلم، والطبقية الفجة، وقوى عظمى تحيط بالجزيرة العربية وتتحكم في مصائر الشعوب.

* **تحولٌ حضاري في زمن قياسي:** في غضون ثلاثة وعشرين عامًا فقط – وهو زمن لا يمثل شيئًا في عمر الحضارات – استطاع هذا الرجل الواحد أن يقتلع عقائد الشرك من جذورها، ويغير الهوية الثقافية والاجتماعية لأمة بأكملها.

لقد حوّل العرب من قبائل متناحرة تعيش على الهامش وتتقاتل لعقود لأجل ناقة أو ثأر قبلي، إلى أمة متماسكة أسست بنيانها على قيم العدالة، لتخرج من قلب الصحراء وتقود جيوشًا غيرت

خريطة العالم السياسية، وحملت مشاعل العلوم والحضارة بشرق الأرض وغربها.

* **الإنقلاب الاجتماعي الخارق للعادة:** إن هذا التحول الشامل والجذري في مصفوفة القيم، والسلوك، والولاءات، وبإمكانيات مادية كانت شبه منعدمة في البداية، يمثل في حد ذاته معجزة اجتماعية وتاريخية لا يمكن تفسيرها بالعبقرية البشرية المجردة. فالبشر – مهما أوتوا من ذكاء وقوة كاريزمية – لا يمكنهم قيادة تحول بهذا الاتساع والعمق في نفوس الناس والبيئات في هذه المدة الوجيزة، مما يقطع بأن هذا العزم وهذا الأثر لم يكن ليتحقق إلا بتأييدٍ ونصرٍ مباشر من رب السماوات والأرض.

حادي عشرَ :عجائبُ الحب والتضحية.. حين يشهدُ الأتباع بالنبّوة

إذا كان التاريخ قد عرف قادةً عظماء أطاعهم جنودهم مهابةً أو طمعًا، فإن أحدًا في تاريخ البشرية جمعاء لم يحظَ بما حظي به رسول الله ﷺ من حبٍّ، واستماتةٍ، وتضحيةٍ من أصحابه؛ حبٌّ بلغ حدًا يذهل العقول، ويتجاوز كل التفسيرات المادية المألوفة.

إن هذا الحب لم يكن مجرد عاطفةٍ عابرة، بل كان برهانًا عقليًا قاطعًا على صدق نبوته؛ فمن هم هؤلاء الصحابة الذين استماتوا في الدفاع عنه؟

إنهم لم يكونوا أتباعًا سُذّجًا يسهل خداعهم، بل كانوا رجالاً من صناديد العرب، يتصفون بالأنفة، والكبرياء، والصلابة.

والأعجب من ذلك، أن كثيرًا منهم كانوا في بداية أمرهم أعداءً لدودين له، يتربصون به الدوائر، بل وخرج بعضهم شاحذاً سيفه لقتله والتخلص من دعوته.

فما الذي عساه أن يقلب هذا العداء الشديد، في لحظاتٍ أو أيام، إلى حبٍّ جارفٍ يسترخصون معه الدماء والأرواح؟

الجواب يكمن في ما عاينوه وشاهدوه؛ إنهم خالطوه في ليلهم ونهارهم، في سلمهم وحربهم، في ساعات الضيق وفي لحظات النصر. رأوا من صدقه وأمانته، ومن طهارة نفسه ونبل أخلاقه، ومن الآيات والبراهين التي تجلت على يديه، ما جعل الشك مستحيلاً في عقولهم. لقد أيقنوا بيقينٍ لا يتزعزع أنه رسول الله حقًا، وأن ما جاء به هو الوحي المبين.

لم تكن عبارة "بأبي أنت وأمي يا رسول الله" مجرد كلمةٍ تقال في المجالس، بل كانت عقيدةً تترجمها الدماء زكيةً في أرض المعارك؛ ففي يوم "أُحُد"، حين اشتد الكرب وتكالب الأعداء حول النبي ﷺ، أحاط به أصحابه بأجسادهم ليكونوا له دروعًا بشرية.

فهذا "أبو دجانة" ينحني فوق رسول الله ﷺ يحميه بظهره، والنبال تقع عليه وتغرس في جسده وهو لا يتحرك، خشية أن تصيب النبي طعنة. وهذا "طلحة بن عبيد الله" يقي النبي ﷺ بيده من السهام حتى شُلَّت أصابعه، وهو يبتسم ولسان حاله يقول: "نحري دون نحرك يا رسول الله".

ولم يقتصر هذا اليقين العجيب على الرجال وحدهم؛ بل تجسد في أبهى صوره في نساء الصحابة. فهذه امرأة من بني دينار،

أُصيب زوجها، وأخوها، وأبوها في المعركة، وحين نُعوا إليها، لم تسأل عن فجيعتها، بل كان سؤالها الوحيد بلهفة: "ما فعل رسول الله ﷺ؟"، ولما رأته عيناها سالمًا، قالت كلمتها الخالدة التي تلخص اليقين: **"كل مصيبةٍ بعدك جلل"** (أي هينة).

إن هذا التحول النفسي الهائل، وهذه الاستماتة التي بذل فيها الرجال والنساء أنفسهم، وأبناءهم، وآباءهم، في سبيل رجلٍ كانوا بالأمس يعادونه.. لا يمكن تفسيره بعبقريةٍ قيادية أو سحر ساحر؛ فالكاذب يسقط حتمًا أمام من يخالطونه ويعرفون تفاصيل حياته اليومية.

لقد رأى الصحابة من رسول الله ﷺ ما لم تره عينُ بشر؛ رأوا النبوة حيةً تسعى بينهم، فكانت تضحيتهم بأرواحهم هي الشهادة العملية الأقوى، والبرهان الحيَّ الذي صُبغت سطوره بالدماء، معلنةً للعالمين: **أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون إلا نبيًا صادقًا.**

خاتمة الفصل: تلافي الشك وتثبيت البنيان

إن العقل المنصف الحُر حين يقف متأملاً أمام هذا البنيان المتكامل من الشواهد والأدلة، يدرك أن قضية صدق النبوة وثبوت السُنّة ليست مبنية على ظنٍ عابر أو دليل واحد منفرد، بل هي منظومة يقينية تآزرت فيها الشواهد وتطابقت: من إعجاز في الإخبار بغيوب المستقبل، وحقائق علمية سبقت المختبرات، ونزاهة وتجرد شخصي كامل، وأخلاق شامخة ثبتت في الشدة والرخاء، وصولاً إلى أثر تاريخي وحضاري مستمر لم يخفت نوره حتى اليوم.

وحين تترابط هذه البراهين معًا في عقل الباحث عن الحق، يتلاشى الضباب، وتتحطم فرضيات المصادفة أو الصنع البشري أمام صخرة الواقع الصلب. إنها دعوة للتأمل الواعي الذي يورث النفس طمأنينة واثقة، ويقود القلب إلى النتيجة الحتمية الباهرة:

أن هذا الدين حق، وأن السُنّة النبوية هي التطبيق الحي والبيان المعصوم لوحي الله إلى العالمين، لتستقر النفس وتبدأ رحلتها في رحاب اليقين، وهي تقرأ بقلبها وعقلها:

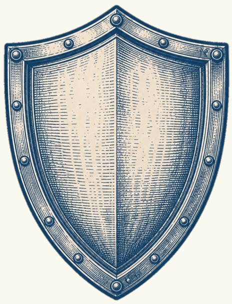
﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ [سورة آل عمران:95].

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

هل غيّر اكتشافك للبراهين العلمية والتاريخية والكونية لصدق النبي ﷺ من نظرتك لدلائل النبوة؟ وكيف تصف اليوم هذا التوافق المذهل بين الوحي والحقائق العلمية؟

الفصل الثامن

منهجية التصدي للشبهات



لقد كانت رحلتنا عبر هذا الكتاب رحلة استعادة للذات؛ انتقلنا فيها من **إسلام الوراثة** الذي وجدنا أنفسنا عليه بمحض الصدفة الجغرافية، إلى **إسلام الاختيار** الذي عانقناه بمحض البصيرة العقلية.

إن الهدف الذي سعينا خلفه لم يكن مجرد إضافة معلومات، بل كان تعميقًا لجذور اليقين وتثبيتًا لأركانه؛ لنستبدل تقليدَ الآباء بإيمانٍ واعٍ لا تزعزعه العواصف.

لقد اخترنا في ثنايا هذا الكتاب أن نضع نصوصنا المقدسة جانبًا لبرهة؛ لا تقليلاً من شأنها – حاشا لله – ولكن لنثبت لأنفسنا وللعالم أن هذا الدين لا يخشى المحاكمة العقلية.

تقمصنا دور الباحث المتجرد، سألنا عن موجد الكون، وعن حكمة الخلق، وفحصنا الأديان والمناهج بمنظار الفطرة، فلم نجد مرفأً ترسو فيه سفينة المنطق بسلام سوى في رحاب الإسلام.

حدود العقل.. وقاعدة الطبيب

بيد أن اليقين لا يعني الإحاطة بكل شيء، وهنا تكمن قمة الذكاء البشري؛ فمن تمام العقل أن يعترف بحدوده. فكما أن للبصر أفقًا لا يتجاوزه، وللسمع ترددًا لا يدركه، فإن للعقل سقفًا في الاستيعاب.

حين نصل إلى الإيمان بالخالق عبر بوابة العقل، يصبح من المنطق المحض أن نُسلّم بكل ما جاء من عنده، حتى وإن غابت عن مداركنا الحكمة التفصيلية. ولتقريب هذه الفكرة، **دعونا نتأمل هذه القصة:**

تخيل مريضًا بحث طويلاً عن طبيب حاذق يثق في علمه وأمانته. حين وجده وفحصه الطبيب، كتب له وصفةً طبيةً بجرعات محددة وأوقات دقيقة..

توقف المريض وقال للطبيب: "لن أتناول الدواء حتى تشرح لي آلية عمل كل مركب كيميائي، ولماذا هذا مرتان وهذا أربع؟ ولماذا قبل الطعام وليس بعده؟ لابد أن تقنعني أولاً!".

هل نرى في تصرف هذا المريض حكمةً أو وعيًا؟

بالطبع لا، بل هو خلل في فهم **محدودية القدرات**. فكيف له أن يطلب من الطبيب أن يلخص له في دقائق ما تعلمه في عشرات السنين؟ أليست الحكمة تقتضي أن نبذل الجهد في اختيار الطبيب، فإذا أيقنا بخبرته، أخذنا الدواء بقلبٍ مطمئن؟

ولله المثل الأعلى..

إن كان الإنسان يثق في علم بشرٍ قاصر مثله، ويتناول الدواء دون فحص المعادلات الكيميائية، فهل يعقل أن نتردد في التسليم لحكمة رب البشر؟

بين حق السؤال.. وأدب التسليم

ومع هذا، لا يطلب منك الإسلام أبدًا أن تُلغي عقلك؛ بل على العكس، فمن حقك الأصيل أن تسأل، وتبحث، وتستفصل – ليس من باب التشكك والاعتراض – ولكن لتتعلم وتتفقه في دينك وتزداد طمأنينة ووعي.

فإذا واجهت أمرًا غابت عنك حكمته، أو حكمًا غابت عن مداركك البشرية غايته، فليس من الخطأ أن تتساءل بحثًا عن وجه الحكمة: "كيف ولماذا؟".

ولكن.. السؤال يحتاج إلى بوصلة:

حين نمرض، نسأل الأطباء، وحين تتعطل آلاتنا نسأل المهندسين. وكذلك في أمور الدين، نذهب إلى أهل العلم والديانة الراسخين؛ أولئك الذين قضوا أعمارهم في استنباط الحكم وفهم مقاصد الشريعة. اذهب إليهم، اسألهم، وغالبًا ما سيشرحون لك من الحكمة الإلهية ما غاب عن ذهلك، فإذا اقتنع عقلك – وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان – فبِها ونعمت.

ولكن، ماذا لو سألت وبحثت ولم يقتنع عقلك بعد؟

هنا يحين وقت تفعيل بديهية عقلية كبرى، وهي:

الإقرار بمحدودية العقل البشري.

لننظر للأمر بمنطقية:

* في الرياضيات، هناك معادلات يفهمها العباقرة ويستصعبها غيرهم، فهل يعني عجزنا عن فهمها أنها خاطئة؟ بالطبع لا، بل العيب في قدرتنا على الاستيعاب اللحظي.

* كذلك في التشريع؛ قد يوجد أمرٌ ما فهم حكمته غيرك لكنك لم تستطع أنت الوصول إليها الآن.

ذلك ليس قدحًا في الشريعة ولا عيبًا في المنهج، بل هو **قصور بشر** في استيعاب **حكمة الخالق**؛ نظرًا للفارق الجوهري الشاسع بين محدودية إدراكنا وعلمنا البشري، مقارنةً بسعة علم الخالق المحيط بكل شيء.

في هذه اللحظة تحديدًا، يكون منتهى العقل هو الاستسلام والرضا؛ أن تقول: "ربما لا أفهم الآن، لكني أثق في حكمة من وضع المنهج"، تمامًا كما تثق في الطبيب وتتناول الدواء وأنت لا تعرف كيف يتفاعل مع خلاياك.

قاعدة الارتكاز: رد المتشابه إلى المحكم

بعد أن أدركنا حدود العقل ومحدودية الإدراك البشري، تبرز أمامنا قاعدة ذهبية في المنهج المعرفي تُعدّ درعًا واقيًا يحمي يقيننا من التزعزع، وهي قاعدة **(رد المتشابه إلى المُحكم).**

في كل علم من العلوم، هناك ثوابت كبرى (مُحكمات) لا يختلف عليها المتخصصون، وهناك جزئيات قد تبدو غامضة أو تحتمل التأويل (متشابهات) لغير الراسخين.

والخطأ المنهجي الفادح الذي يقع فيه الكثيرون هو (الاستدلال بالمتشابه على نقض المحكم)، أي أن يأخذ المسألة الغامضة التي غابت حِكمتها أو استشكل فهمها، ليجعلها أصلاً يهدم به العقيدة الراسخة.

كيف نطبق هذه القاعدة عقلياً؟

المحكمات: هي أصول الدين الكبرى؛ وحدانية الله، ثبوت نبوة النبي ﷺ، حجية الوحي، كمال صفات الخالق، وعموم مقاصد الشريعة (حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال). هذه ركائزُ أرسى الوحيُ قواعدَها، ونطقت بها النصوصُ الصحيحة؛ فهي ثوابتُ لا يمسُّها تبديل، ولا ينالُ من صفائها تغيير.

المتشابهات: هي تلك المسائل الجزئية التي قد تُثار حولها تساؤلات، سواء كانت في تشريعٍ يبدو غامض الغاية، أو قصة تاريخية، أو نصٍ يوهم ظاهره غير مراده.

المنطق السليم يقتضي: ألا تسمح للجزئية (المتشابهة) أن تزعزع الكلية (المحكمة). فإذا ثبت عندك **المحكم اليقيني**،فلا تكن كمن يهدم بناءً شامخًا بسبب حجرةٍ لم يدرك سبب وجودها في البناء!

إن العقل النبيه هو الذي يضع المتشابه في خانة (الانتظار البحثي)، فيقول: أنا أؤمن بهذا الأصل (المحكم) لعلمي بصحته، وأما هذه الجزئية (المتشابهة) التي استشكلتُها، فسأبقى باحثًا عن وجه الحق فيها، دون أن أسمح لها بأن تنال من ثوابتي التي بنيتها على اليقين.

بذلك، تحمي عقلك من التخبط، وتجعل من تساؤلاتك رحلةً معرفية للارتقاء، لا رحلةً هدمية للارتداد.

بروتوكول التعامل مع التساؤلات (خلاصة القاعدة)

إذا واجهتَ شبهة أو تساؤلاً يثير الحيرة في صدرك، فلا تجعل من عقلك سجنًا له، بل اتبع المسار المنطقي التالي:

* اكسر حاجز الصمت: لا تحبس التساؤل بداخلك وتنفرد به؛ فالعقل أحيانًا يدور في حلقة مفرغة إذا لم يجد معطيات جديدة.

* ابحث عن أهل التخصص: اذهب إلى أهل العلم والديانة الراسخين، وتحدث إليهم بكل وضوح.

تذكر دائمًا: لا يوجد في الإسلام ما نخفيه أو نخجل منه؛ **فهذا الدين متين، محكم.**

* إذا لم تستوعب الحكمة في لحظتك الحالية، فكن شجاعًا بما يكفي لتعيد الأمر إلى (محدودية الإدراك البشري) لا إلى (قصور التشريع الإلهي).

* الصلة بالخالق: اجعل من تساؤلك وسيلة للقرب، وادعُ الله بصدق أن يفتح على بصيرتك ويشرح صدرك لاستيعاب ما غاب عنك؛ فالعلم نور يقذفه الله في القلوب.

والآن، بعد أن وضعنا القواعد العامة للتعامل مع الشبهات، سنمر مرورًا مختصرًا على أبرز ما يُطرح من شبهات حول الإسلام؛ بهدف تحليلها بهدوء، وبيان مواطن الخلل المنهجي فيها عند الفحص الدقيق.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

عندما تسمع شبهة جديدة في المستقبل، ما أول شيء تود أن تذكر به نفسك قبل أن تنشغل بها؟

الفصل التاسع

الرد على أشهر الشبهات حول الإسلام

الشبهة الأولى

الجهاد في الإسلام



فلسفة الجهاد.. بين الحقيقة والتشويه

من أكثر المفاهيم التي تعرضت للتشويه في الخطاب المعاصر هو مفهوم الجهاد؛ حتى صُوِّر عند البعض على أنه مجرد وسيلة للهيمنة، بينما يكشف النظر في النصوص الشرعية والتاريخ عن حقيقته كتشريعٍ قُصد به دفع الظلم، وإرساء العدل، وصيانة كرامة الإنسان.

ينقسم الجهاد في الإسلام إلى مسارين متكاملين:

- جهاد الدفع: وهو رد العدوان عن الأرض والنفس، وهذا حق تشترك فيه الفطرة البشرية والقوانين الدولية؛ فلا يختلف على عدالته عاقل.
- جهاد الطلب: وهو الجانب الذي يُساء فهمه؛ وهو أن يتحرك المسلمون لنشر الرسالة في ديار لم يصلها الإسلام. وهنا السؤال الجوهري: لماذا هذا النوع من الجهاد؟ هل هو احتلالٌ للأرض، أو نهبٌ للثروات؟ قطعًا لا.

العقلية الاستعمارية مقابل الرسالة الأخروية

إن الذين ينتقدون جهاد الطلب ينظرون إليه بعين العقلية الاستعمارية التي لا تفهم من التوسع إلا السيطرة المادية؛ كما فعلت القوى الاستعمارية قديمًا في الهند وأفريقيا وليبيا، حيث

كانت غايتهم دنيوية بحتة (موارد، رؤوس أموال، وتوسع).

أما في الإسلام، فالفلسفة تختلف تمامًا؛ الأرض ليست غاية، والغنائم ليست هدفًا. فالتحرك ينطلق من اعتقاد راسخ بأن الرسالة هي إنقاذ الناس من النار؛ فكيف يكون إنقاذهم إذا كانت دولهم تضع الحواجز أمامهم، وتُشوه صورة الحق، وتهددهم بالتنكيل إن هم اختاروا الإيمان؟

الحق الأعظم للإنسان.. نـجاة الروح

في ظل اللوثات المادية المعاصرة، يُختصر حق الإنسان في المأكل والمشرب والحرية المدنية. وهذه حقوق هامة، لكنها ليست **"الحق الأعظم"**

- الحق الأعظم للإنسان: هو ألا يُحال بينه وبين معرفة خالقه، وأن يُعان على نيل الفوز الأخروي.
- الحرية الحقيقية: هي أن يسمع الإنسان عن الإسلام دون تشويه، وأن يختاره دون خوف من سلطة أو جَور حاكم.
- التضحية من أجل الآخر: يقوم هذا المفهوم على أن هذا الحق أسمى من **حق بقاء النفس**؛ لذا يضحي المسلم بنفسه في الجهاد ليوصل للآخرين حقهم في المعرفة والنجاة في الآخرة.

رابعًا: كسر القيود لا إكراه القلوب (منهجية الفتح الإسلامي)

إن الهدف من جهاد الطلب ليس **إجبار** الناس على اعتناق الدين، فالإيمان المكره باطل أصلاً وغير مقبول ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [سورة البقرة:256].

الغاية هي إزاحة القوى الحاكمة التي تحول بين الشعوب وبين نور الدعوة.

ولتحقيق ذلك، يتبع المسلمون خطوات دقيقة تضع حقن الدماء غايةً أولى:

- **عرض الإسلام**: أول ما يفعله الجيش هو عرض الإسلام على قادة البلاد؛ فإن وافقوا، ظلوا في ملكهم وسلطانهم كما هم، ولهم السيادة الكاملة على بلادهم طالما يحكمون بشرع الله (كما حدث مع النجاشي)، وهذا هو المطلوب الأول.
- **عرض تسليم السلطة**: إذا رفض القادة الدخول في الإسلام، يُطلب منهم التنازل عن الحكم لا عن الدين، مع دفع الجزية؛ وهي مساهمة مالية (تُشبه بدل الإعفاء من الخدمة العسكرية في القوانين الحديثة) تُفرض على الرجال القادرين على القتال فقط مقابل حمايتهم، ويُعفى منها تمامًا النساء، والأطفال، والشيوخ، والفقراء؛ لكي يتولى المسلمون إدارة البلاد وتأمين وصول الدعوة

للناس.

- **القتال** (الخيار الاضطراري): إذا رفض الحكام العرضين السابقين واختاروا المواجهة العسكرية لمنع وصول الرسالة، هنا فقط يقع القتال.
- **بعد المعركة**: بمجرد الانتصار، يتوقف القتال فورًا. لا يوجد قتل للانتقام أو التصفية؛ فالهدف ليس الموت، بل التمكن من البلاد لنشر الدعوة وإعطاء الناس حرية حقيقية في اختيار الإسلام دون تهديد من قادتهم القدامى.
- النموذج المصري: هذا ما تم حرفيًا في فتح مصر؛ فبعد معارك مع السلطات الحاكمة (كالسلطة البيزنطية في مصر)، استقر الحكم الإسلامي، وبدأ المصريون يدخلون في دين الله أفواجًا طواعية عبر الزمان، بعد أن تلمسوا جمال وعدل الإسلام في البيئة التي وفرها الفتح. وهذا هو المقصد الرئيسي للفتح تهيئة البيئة الآمنة للاختيار.

رُقيّ القتال في الإسلام (لغة الأرقام)

بالمقارنة التاريخية، سنجد أن قتال المسلمين هو الأقل إراقة للدماء؛ لأن الهدف هو الهداية لا التصفية:

- إذ يثبت الاستقراء التاريخي للغزوات والطلائع النبوية أن

إجمالي عدد القتلى من الطرفين طوال عشر سنوات لم يتجاوز بضع مئات (نحو 400 إلى 1000 قتيل على أقصى تقدير)، مما يؤكد حرص العقيدة العسكرية الإسلامية على صيانة الأرواح.

• في المقابل: سقط 22 مليونًا في الحرب العالمية الأولى، و75 مليونًا في الثانية[1]!

• أخلاق الفرسان: حتى في أوج المعارك، يبرز رقيُّ الإسلام في معاملة الأسرى؛ فبينما نرى اليوم صنفًا من الجيوش المجرمة التي تُنكّل بالأسرى وتتفنن في تعذيبهم، مُهينةً كرامتهم الإنسانية في مشاهد تفتقر لأدنى قيم المروءة، نجد الإسلام يحث المؤمنين على الرقي في المعاملة مع الأسرى؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [سورة الإنسان:8]. لقد كان المسلمون يقتسمون لقمة عيشهم مع أسراهم، مما جعل الكثير من هؤلاء الأسرى يختارون الإسلام حبًا في نبله، وإدراكًا منهم أن دينًا يفيض بهذا السموّ لا يمكن إلا أن يكون حقًا.

---

(1) للاطلاع على دراسة أكاديمية محكمة تتناول إحصاءات القتلى في العهد النبوي ومقارنتها بالتاريخ العسكري العالمي، يُراجع: "What Changed in Medina: The Place of Peace and War in the Life of Prophet Muhammad"، المنشور في مجلة Religions (MDPI)، سنة 2023. وللاطلاع على أعداد ضحايا الحربين العالميتين، يُراجع: Encyclopædia Britannica، المادتين: "Casualties of World War I" و"World War II casualties".

الخلاصة:

إن الجهاد هو من أعظم محاسن الإسلام؛ لأنه يضع نجاة الإنسان الأبدية فوق كل اعتبار دنيوي، ويجعل من المسلم جنديًا في سبيل الحقيقة، لا في سبيل الهيمنة.

وبناءً على ما سبق، يتضح بطلان الفرية القائلة بأن الإسلام انتشر بحد السيف؛ فالسيف قد يفتح أرضًا، لكنه أبدًا لا يفتح قلبًا.

إنما تنفتح القلوب عند معاينة هذا الدين العظيم بوضوح في بيئة آمنة، والدليل القاطع أن كبرى الدول الإسلامية من حيث عدد السكان اليوم (مثل إندونيسيا وماليزيا) لم يطأ أرضها جندي مسلم واحد، ولم تُفتح بجيوش،

بل فُتحت بـ "**خُلق**" التجار المسلمين. فكانت أمانتهم وصدق معاملتهم هي القوة الناعمة التي غزت القلوب وجعلت شعوبًا بأكملها تعتنق هذا الدين العظيم عن حب وقناعة.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

هل تغيرت الصورة التي كانت في ذهنك عن مفهوم الجهاد قبل قراءة هذا الفصل وبعده؟ وكيف؟

الشبهة الثانية

الحدود في الإسلام



من أكثر الشبهات التي تُثار حول الشريعة الإسلامية هي اتهام حدودها بـ **القسوة**، وتصويرها كأحكام جامدة تفتقر للرحمة.

وغالبًا ما تنشأ هذه النظرة من قراءة مبتورة، تنظر إلى العقوبة بمعزل عن المنهج الذي بُني عليه التشريع كله. فحين تُقتطع الحدود من سياقها الإيماني والاجتماعي، قد تبدو قاسية؛ أما حين تُفهم في إطارها الصحيح باعتبارها منظومة هدفها الحفاظ على المجتمع، تتكشف صورة تشريع لا يقوم على الظلم أو القهر، بل على الحزم العادل الذي يسعى لحفظ الحياة والكرامة.

أولاً: تشريع الخبير... كتالوج الصانع

الإسلام ليس تجربة بشرية قابلة للهوى والخطأ، بل هو تشريع صادر عن الحكيم الخبير الذي خلق الإنسان ويعلم خفايا نفسه.

وكما أننا نلتزم بـ **دليل التشغيل** الذي يضعه صانع الآلة المعقدة لنضمن سلامتها، فكذلك النفس البشرية والمجتمعات لا يُحيط بما يُصلحها إلا خالقها.

ومن هذا المنطلق، لم تأتِ الحدود كأدوات للانتقام، بل كـ **تشريع وقائي** يضع لكل خلل علاجًا قبل أن يستفحل.

ثانيًا: الردع والزجر... الجدوى من العقوبة تسبق التنفيذ

في العقل المادي، تُقاس جودة أي نظام بمدى جدواه في تحقيق النتائج. والهدف من الحدود ليس **إيلام الجسد**، بل تحقيق **صفر جريمة**. فحين يعلم الفرد بوجود عقوبة حازمة، ينشأ وازع نفسي يمنعه من الانزلاق.

هنا تتحول العقوبة من إجراء يُنفذ "**بعد**" الجريمة إلى سياج يحمي المجتمع "**قبلها**". إنها رحمة بالضحية بصيانة حقها، ورحمة بالجاني نفسه بردعه عن ارتكاب ما يلوث يده ويهلك مستقبله.

ثالثًا: ميزان العدل... أين ينبغي أن تتجه أعيننا؟

كثيرًا ما يركز البعض على ألم العقوبة، ويغفلون عن بشاعة الجريمة. فحين يُثار الحديث عن الصرامة، يبقى السؤال الأهم: على مَن تكون القسوة حقًا؟

- أعلى الجاني الذي اختار الاعتداء بوعيه؟ أم على الضحية التي سُلب أمنها أو حياتها؟
- أيهما أكثر ضررًا على المجتمع: نظام يتساهل مع المجرمين فتتحول المدن إلى غابات من الخوف وتُستنزف الميزانيات في

سجون مزدحمة، أم نظام يحسم الجريمة من جذورها بوضوح وحزم؟ إن الشريعة لم تأتِ لتُعلي من شأن الألم، بل لتقف بوضوح إلى جانب الأبرياء وصيانة المجتمع من الفوضى.

رابعًا: أمان المجتمع... أولوية لا تُساوَم

الأمان ليس رفاهية اجتماعية، بل هو الأساس الذي تُبنى عليه الحياة. الشريعة لا تُقدِّم مصلحة الفرد الذي اختار الإفساد على حق المجتمع بأسره في السكينة. فإذا تعارضت راحة من أصرّ على المظالم و الاعتداء مع سلامة الناس، كانت الأولوية للأغلبية؛ لأن استقرار أمة كاملة أعظم شأنًا من ترك الفساد يتمدد بلا رادع.

خامسًا: شروط التطبيق (البيئة المهيأة)

يتصور بعض الغربيين أن الإسلام إذا حكم مجتمعاتهم اليوم، فسيبدأ مباشرةً بتطبيق الحدود على نطاق واسع؛ فتُقطع يد هذا، ويُجلد ذاك، ويُرجم آخرون، بحكم انتشار الخمر والزنا والسرقة وغير ذلك من الجرائم في مجتمعاتهم.

لكن هذا التصور بعيد عن حقيقة الشريعة الإسلامية؛ لأن الإسلام لا يبدأ بإقامة الحدود في مجتمعٍ ما قبل أن يُعيد بناءه أخلاقيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

فالشريعة لا تتعامل مع الإنسان بمنطق العقوبة أولًا، بل بمنطق الإصلاح والتهيئة قبل المساءلة؛ فتُربّى النفوس على الإيمان والعفة، وتُيسر سبل الحلال، وتُغلق أبواب الفساد قدر الإمكان، ثم بعد ذلك تأتي العقوبات كخط دفاع أخير لحماية المجتمع.

ويخطئ من يظن أن الحدود تُقام في "فراغ"، أو في مجتمع يفتقد العدالة والكرامة الإنسانية.

بل لا تُطبق الحدود إلا في مجتمعٍ إسلامي متكامل، توفرت فيه مقومات الحياة الكريمة، وانتشر فيه الوعي الأخلاقي، وقامت فيه الدولة بواجبها في الرعاية والعدل، ومن أمثلة ذلك:

- حد السرقة لا يُقام في زمن المجاعة أو الحاجة العامة، ولهذا أوقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه إقامة حد السرقة في عام الرمادة؛ لأن الظروف الاستثنائية قد تدفع الإنسان إلى ما لا يختاره في الأحوال الطبيعية.

- قاعدة انتفاء الشبهات: من أعظم الضمانات في الشريعة قول النبي ﷺ: **(ادْرَؤوا الحدودَ عن المسلمين ما استطعتُم فإن كان له مخرجٌ فخَلُّوا سبيلَه فإنَّ الإمامَ إن يُخطِئ في العفوِ خيرٌ من أن يُخطِئَ في العُقوبةِ)**[1]

---

(1) أخرجه الترمذي.

أي أن وجود أي احتمال معتبر للبراءة، أو نقص في الأدلة، أو وجود ملابسات، كافٍ لوقف تنفيذ الحد. ومن أبرز الأمثلة على ذلك **حد الزنا**، إذ اشترطت الشريعة شهادة أربعة شهود عدول يشهدون الواقعة شهادةً صريحة متطابقة، وهو شرط بالغ الصعوبة في التحقق، بما يضمن ألا تُقام العقوبة إلا مع توافر يقينٍ كامل لا يدع مجالًا للشك.

وهذا يكشف أن الشريعة لا تتشوف إلى العقوبة، بل تتشوف إلى الستر والعفو ومنع الظلم، ولذلك كان تطبيق الحدود في التاريخ الإسلامي نادرًا للغاية.

إن الحدود في الإسلام ليست أداة تُسلط على مجتمع مضطرب أو على فقراء ومحتاجين، وإنما هي المرحلة الأخيرة في مجتمعٍ بُني أولًا على الإيمان والعدل والرحمة.

سادسًا: العِبرة بالمنع لا بكثرة التنفيذ

التاريخ يثبت أن المرات التي أُقيمت فيها الحدود في عهد النبوة والخلافة الراشدة كانت نادرة جدًا.

هذه الندرة هي أكبر دليل على نـجاح فلسفة الحدود؛ فبمجرد علم الناس بوجود عقوبة حازمة، انخفضت معدلات الجريمة إلى

أدنى مستوياتها، وأصبح المجتمع آمنًا بأقل قدر ممكن من الدماء أو العقوبات.

فالمجتمع الآمن ليس هو الذي يفتخر بكثرة سُجنائه، بل هو المجتمع الذي لا يحتاج أصلاً إلى إقامة العقوبة؛ لأن نظامه الوقائي والردعي قد حقق الأمن بأقل قدر ممكن من الألم.

فخلاصة القول في الحدود في الإسلام

أن الحدود في الإسلام لا تستهدف الأبرياء، ولا تلاحق من أخطأ بينه وبين خالقه في ستر بيته؛ فالإسلام يقدس الخصوصية ويُندب فيها الستر والتوبة، ويحرم التجسس.

ولكن العقوبة موجهة حصرًا لمن يتعمد إيذاء الآخرين أو انتهاك حقوقهم (كالقتل، السرقة، القذف، والحرابة)، أو لمن يجاهر بالرذيلة لكسر هيبة المجتمع وإشاعة الفوضى.

فالهدف النهائي هو ضمان ألا يتحول الخطأ الشخصي إلى سلوك عام يهدد أمان المجموع، لتظل حرية الفرد تنتهي دائمًا حيث تبدأ حقوق وأمان الآخرين.

رُخص الشريعة: حين تكون الرحمة هي القانون

وكما تجلت حكمة التشريع في صرامة الحدود لحفظ الأمان، فإنها تتجلى كذلك في مرونة الرخص؛ فإذا كانت **الحدود** هي السور القوي الذي يحمي استقرار المجتمع، فإن **الرخص** هي النوافذ الواسعة التي تتنفس منها روح الإنسان وتراعي ضعفه البدني والمادي.

في الإسلام، هناك قاعدة ذهبية تقول: **"المشقة تجلب التيسير"**؛ أي أن التشريع يتراجع خطوة إلى الوراء ليخفف عنك كلما ضاقت بك الظروف.

وإليك نماذج من هذه المرونة التي تراعي الإنسان في كل حالاته:

رخصة الجسد: العبادة لراحة الروح لا لإنهاك البدن

الإسلام لا يريد إنهاك جسدك، بل يريد طهارة روحك واتصالها بخالقها. لذا، جعلت الشريعة العبادة **مرنة** تناسب وضع الإنسان:

- في الصلاة: إذا عجز الإنسان عن الوقوف، فله أن يصلي جالسًا، وإن عجز فصلاة بالإيماء وهو مضطجع.

- في الطهارة: إذا كان الماء يؤذيه أو يمرضه، فله أن يستبدله بـ التيمم (مسح اليدين بالتراب الطاهر)؛ ليبقى الاتصال بالله قائمًا دون إلحاق أي ضرر بالجسد.

- في فرض الحجاب: رغم وجوب التزام المرأة بالحجاب بشروطه المعروفة، فإن الشريعة تمنح رخصةً خاصة للمرأة المسنة التي تقدم بها العمر، فلها أن تتخفف من بعض ثيابها تيسيرًا عليها ومراعاةً لظروفها، مع الحفاظ على وقارها وحشمتها.

ومن هنا ندرك أن التشريعات في الإسلام لم تُشرع للتضييق على الناس، بل لمراعاة أحوالهم المختلفة واحتواء ما يعتريهم من ضعفٍ وحاجة. .

قمة اللطف النبوي.. حين تتحول العقوبة إلى "رزق"

ومن القصص النبوية التي تجسد عمق الرحمة في الإسلام، قصة ذلك الصحابي الذي جاء للنبي ﷺ يبكي لأنه أخطأ في نهار رمضان، وكان يظن أن الهلاك قد حلّ به. وحين عجز عن كفارة عتق الرقبة أو صيام شهرين متتابعين لضعفه، لم يتبقَّ أمامه إلا إطعام ستين مسكينًا.

وحين قال الصحابي بصدق: "لا أجد"، وأُتي النبي ﷺ بمكتل من تمر ليتصدق به ككفارة، قال الصحابي بعفوية: "أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها (أطراف المدينة) أهل بيت أفقر من أهل بيتي!".

هنا تجلت رحمة الإسلام؛ ضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ولم يتشدد معه أو يؤنبه، بل قال له: "خذه وأطعمه أهلك". لقد تحولت الغرامة أو العقوبة إلى معونة وهدية لهذا الإنسان البسيط، لأن الله ورسوله يعلمان صدقه وضعفه.

قاعدة الضرورات..

هذه القاعدة الكلية هي صمام الأمان في الإسلام؛ فالمحرمات تصبح مباحة (بل وواجبة) إذا كان البديل هو هلاك الإنسان.

الخلاصة:

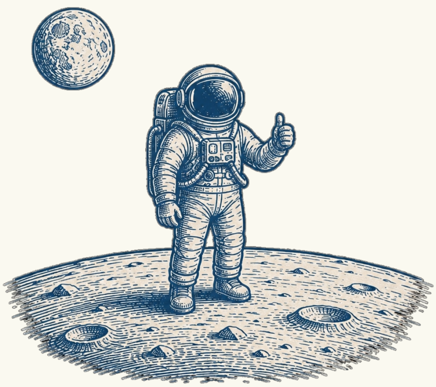
إن الشريعة الإسلامية قامت على توازنٍ دقيق؛ فهي صرحٌ من القوة والصرامة في وجه كل ما يهدد أمن المجتمع وسلامته، وهي في الوقت ذاته مهدٌ للرحمة واللين أمام أنين المرضى، وفقر المحتاجين، وضعف كبار السن. إنها منظومةٌ أخلاقيةٌ متكاملة، تضع الحزم في موضعه، وتسكب الرحمة حيثما استدعى الضعف البشري.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

ما الفكرة التي شعرت أنها غابت عن كثير من الناس عند الحديث عن الحدود الشرعية؟

الشبهة الثالثة

تأخر المسلمين وتقدم الغرب



هل العيب في المنهج أم في التطبيق؟

حين ننظر إلى واقع اليوم، نرى فجوة حضارية وعلمية كبيرة بين العالم الإسلامي والغرب. هذا الواقع يدفع الكثيرين للتساؤل:

"إذا كان الإسلام هو المنهج الأكمل، فلماذا يعيش المسلمون في تأخر علمي بينما يتربع الغرب على عرش الحضارة؟"

وللإجابة على هذا، يجب أن نفكك المشهد بعمق وموضوعية.

أولاً: القانون الكوني.. "الأسباب لا تجامل أحدًا"

إن الله وضع في هذا الكون قوانين ثابتة (سنن كونية) لا تحابي أحدًا. فمن يأخذ بأسباب العلم، والنظام، والعمل الدؤوب، يصل إلى السيادة والرفاهية، بغض النظر عن عقيدته.

الإسلام لا يعطي صلاحيةٌ مطلقة للمسلمين بالسيادة لمجرد أنهم مسلمون، بل أمرهم بـ "**إعداد القوة**" وعمارة الأرض.

وتأخر المسلمين اليوم هو في الحقيقة عقوبة ناتجة عن مخالفتهم لتعاليم دينهم التي جعلت طلب العلم فريضة وإتقان العمل عبادة.

ثانيًا: التاريخ يشهد.. حين تحدث العلم باللغة العربية

يجهل الكثيرون أن النهضة الغربية الحالية لم تبدأ من فراغ، بل قامت بالكامل على أكتاف المنهج العلمي الذي ابتكره المسلمون.

ففي العصور الوسطى، حين كانت أوروبا تغرق في عصور الظلام، كانت بغداد وقرطبة والقاهرة منارات تضيء العالم.

هذا الأثر لا يزال حيًا في لغات العالم اليوم من خلال مصطلحات هي في أصلها عربية:

- **الجبر** (Algebra): الخوارزمي ليس فقط صاحب الاسم الذي اشتق منه مصطلح "الخوارزميات" (Algorithms) التي يقوم عليها عصر الذكاء الاصطناعي اليوم، بل إن اسم العلم نفسه في كل لغات العالم مشتق من كتابه "الجبر والمقابلة".
- **الطب والجراحة**: ظل كتاب "القانون في الطب" لابن سينا المرجع الأساسي في جامعات أوروبا لقرون. أما أبو القاسم الزهراوي، فهو يُلقب عالميًا بـ "أبو الجراحة"؛ حيث ابتكر أدوات جراحية (مثل خيوط الجراحة من أمعاء الحيوانات) لا تزال تستخدم بتطويرات بسيطة حتى يومنا هذا.

- **بصمات في المختبرات والنجوم**: مئات النجوم في السماء تحمل أسماءً عربية (مثل Altair "الطائر")، وحتى في الكيمياء نـجد كلمات مثل Alkali (القلوي)، Alcohol (الكحول)، Elixir (الإكسير)، و Syrup (الشراب).

هذا يثبت أن الإسلام لم يكن يومًا عائقًا أمام التقدم، بل كان هو الوقود الذي أطلق شرارة النهضة العلمية العالمية.

ثالثًا: التقدم المادي مقابل التقدم القيمي

يجب أن نسأل: ما هو تعريف "التقدم"؟ الغرب تقدم ماديًا وتقنيًا بشكل مذهل، وهذا حق لا يُنكر. لكن في المقابل، تعاني هذه الحضارة من أزمات إنسانية طاحنة؛ من تفكك أسري، ومعدلات انتحار، وأزمة هوية.

أما الحضارة الإسلامية في أوجها فقد قدمت نموذجًا متوازنًا؛ جمع بين التقدم في الطب والفلك والعلوم المختلفة، وبين الحفاظ على ترابط الأسرة وحقوق الجار والقيم الروحية.

وعليه.. فالتأخر الحالي للمسلمين يعود إلى التقصير في الأخذ بأسباب التقدم، لا إلى خللٍ في القيم والمبادئ التي أرساها الإسلام.

رابعًا: الاستعمار والجغرافيا السياسية

لا يمكن إغفال السياق التاريخي؛ فالعالم الإسلامي خضع لقرون من الاستعمار الذي نهب الثروات وعطل مسيرة التعليم ونشر التبعية.

التقدم الغربي لم يكن دائمًا تطورًا ذاتيًا بحتًا، بل قام جزء منه على استغلال موارد الشعوب الأخرى. هذا ليس تبريرًا للفشل، لكنه تفسير موضوعي للفجوة الحالية.

خامسًا: الإسلام.. حل للمستقبل لا عودة للماضي

العودة للإسلام لا تعني العودة لخيمة وجمل، بل تعني العودة لروح اقرأ، ولإتقان العمل، ومحاربة الفساد، وإعلاء قيمة الوقت.

الإسلام يوفر اليوم الإطار الأخلاقي الذي يحتاجه العلم المعاصر ليبقى خادمًا للإنسانية، لا مهلكًا لها في غمار التطور غير المحكوم بالقيم.

الخلاصة:

المسلمون اليوم يشبهون وارثًا لـ "**خريطة كنز**" ثمينة جدًا، لكنهم أهملوا قراءتها وبحثوا عن الرزق في طرق عشوائية فافتقروا، بينما أخذ غيرهم بأساليب البحث الجادة فوصلوا.

العيب ليس في الخريطة (المنهج)، بل فيمن ترك العمل بها.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

هل يمكن أن يكون التفوق في جانب من جوانب الحياة دليلًا على صحة كل ما وراءه؟ وكيف تنظر إلى هذه الفكرة الآن؟

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

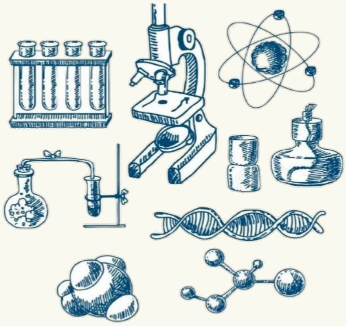
....

....

....

الشبهة الرابعة

شبهة العلم في مقابل الدين



في عصرنا الحالي، يروج البعض لفكرة أن العلم التجريبي قد سحب البساط من تحت أقدام الدين، وأن المختبرات لم تعد تترك مساحة للمحراب. تسمى هذه الموجة بـ **"العلموية"** (Scientism)، وهي ليست علمًا في الحقيقة، بل هي "أيديولوجيا" تحاول تأليه العلم التجريبي واعتباره المصدر الوحيد للحقيقة. ولكن، هل هناك صراع حقيقي، أم أن العقل المنصف يرى عناقًا وتكاملاً؟

1. مغالطة "العلم يغني عن الدين"

يظن البعض أن اكتشافنا لآليات حدوث الأشياء يعني بالضرورة غياب الصانع. وهذا أشبه بمن يقرأ قصيدةً بليغة، فيحلل بحورها، ويشرح أوزانها، ويفكك استعاراتها، ثم يتوهم أن هذا الإدراك يغني عن وجود الشاعر الذي أبدعها!

فالحقيقة هي أن العلم التجريبي يكتشف **السنن الكونية** التي وضعها الخالق، ولا يخلق تلك السنن.

فالعلم هو أداةٌ لقراءة كتاب الكون، وكلما تعمقنا في فهم دقة أسطره،ازددنا يقينًا بقدرةِ الخالقِ الذي أتقنَ صنعه.

2. العلم يجيب على "كيف؟".. والدين يجيب على "لماذا؟"

لكي نفهم التكامل، يجب أن ندرك أن الحقيقة لها مستويان:

- سؤال "كيف؟" (ميدان العلم): العلم التجريبي يخبرنا كيف تتوسع المجرات، وكيف يتخلق الجنين في الأرحام. هو يصف الميكانيكا أو الطريقة التي يسير بها الكون.
- سؤال "لماذا؟" (ميدان الدين): هنا يقف العلم صامتًا. العلم لا يستطيع أن يخبرك لماذا نحن هنا؟ أو ما الغاية من وجودنا؟ أو ماذا بعد الموت؟. إن العلم يصف لك الساعة بدقة مذهلة، ولكن الدين وحده هو من يخبرك بـ **خارطة الطريق** والهدف من وجود هذه الساعة. العلم يعطيك القوة، والدين يعطيك المعنى والوجهة.

3. سقف العقل.. حدود المختبر

لقد أسسنا سابقًا لقاعدة ذهبية: للعقل سقف في الاستيعاب . والعلم التجريبي، بكونه نتاجًا لهذا العقل، له حدود لا يتجاوزها:

- العلم يعتمد على الملاحظة والقياس؛ فهو يحكم فقط على المادة التي تقع تحت الحواس.

• إن ادعاء أن **ما لا يراه العلم غير موجود** هو ادعاء غير علمي؛ فالعقل يوقن بوجود "الروح" وبالحقائق الغيبية عبر الدلائل والبراهين، حتى لو لم تدخل المختبر. إن حدود العقل تجعل من المستحيل على العلم التجريبي الإحاطة بكل الحقيقة، تمامًا كما أن البصر له أفق لا يتجاوزه.

4. الإسلام.. الوقود الأخلاقي للعلم

الإسلام لم يكن يومًا عائقًا أمام العلم، بل كان هو الوقود الذي أطلق شرارة النهضة العلمية العالمية. والفرق الجوهري هو أن الإسلام يوفر الإطار الأخلاقي للعلم؛ لكي لا يتحول العلم إلى أداة لدمار البشرية عبر الأسلحة الفتاكة أو العبث الجيني.

في الإسلام، التفكر في الكون عبادة، وطلب العلم فريضة. نحن لا نؤمن بالغيب لأننا نجهل العلم، بل لأن العلم نفسه يقودنا إلى أن هذا الإتقان خلفه إرادة وحكمة.

خلاصة الفصل: من المختبر إلى اليقين

العلم والدين في الإسلام ليسوا خصمين، بل هما كالعينين للإنسان؛ بالعلم يبصر قوانين اللّه في الأرض (كيف؟)، وبالدين يبصر مراد اللّه من الخلق (لماذا؟).

إن "**العلموية**" هي محاولة لتعطيل إحدى العينين، أما المسلم صاحب اليقين، فهو الذي يقرأ "كتاب اللّه المنظور" (الكون) بعين العلم، ويقرأ "كتاب اللّه المسطور" (القرآن) بعين البصيرة، ليخلص في النهاية إلى أن **الخالق هو الواحد** وأن العلم هو أعظم برهان على عظمة المنهج الإلهي.

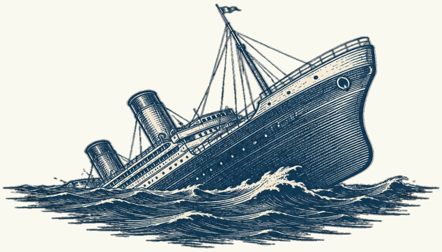
قبل أن ننتقل للفصل القادم...

بعد هذا الفصل، كيف تصف العلاقة التي تراها بين العلم والإيمان؟

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

الشبهة الخامسة

شبهة وجود الشر



لماذا يوجد الألم في عالم خلقه إله رحيم؟

بعد أن أثبتنا في الفصول السابقة أن لهذا الكون خالقًا عليمًا حكيمًا، قد يتساءل البعض:

إذا كان اللّه رحيمًا وقديرًا، فلماذا يوجد الألم؟ ولماذا يمرض الأطفال؟ ولماذا تقع الكوارث؟

هذا السؤال مؤثر وجدانيًا، لكنه لا يُجاب عنه بالعاطفة وحدها، بل بفهم طبيعة الدنيا، وحدود العقل البشري، وطبيعة النظام الذي خُلقنا فيه.

أولاً: أصل الإشكال... تصور خاطئ لطبيعة الدنيا

الخطأ الأساسي في هذه الشبهة هو افتراض أن الدنيا يجب أن تكون مكانًا للكمال المطلق والراحة التامة.

لكن الرؤية الإيمانية تؤكد أن الدنيا لم تُخلق لتكون جنة، بل دار ابتلاء واختبار.

فلو كانت الحياة خالية من الألم، وخالية من التحديات، لما ظهر الفرق بين الصابر والجازع، ولا بين الرحيم والقاسي، ولا بين من يختار الخير ومن يختار الشر.

إن وجود التحديات ليس خللًا في النظام... بل جزء من تصميمه.

ثانيًا: الحرية الإنسانية تقتضي إمكانية الشر

خلق الله الإنسان مريدًا مختارًا، وهذه الحرية هي أساس المسؤولية والثواب والعقاب.

لكن لا يمكن وجود حرية حقيقية إذا مُنع الإنسان من إمكانية الخطأ أصلًا.

فالإنسان الذي لا يستطيع إلا فعل الخير ليس مختارًا، بل مبرمجًا.

ولهذا فإن كثيرًا من الشرور الإنسانية – كالظلم، والخيانة، والقتل – ليست دليلًا على غياب الله، بل نتيجة مباشرة لسوء استخدام الإنسان لحريته.

فالمشكلة ليست في منح الحرية... بل في كيفية استخدامها.

ثالثًا: ليس كل ما نراه شرًا هو شرٌّ مطلق

كثيرًا ما نـحكم على الأحداث من خلال ما نراه في لحظتها، ومن زاوية محدودة. بينما الحقيقة أن كثيرًا مما يبدو مؤلمًا قد يكون جزءًا من خير أكبر.

فالعملية الجراحية مؤلمة... لكنها طريق الشفاء.

والطفل قد يرى إبرة الطبيب شرًا... بينما الطبيب يرى فيها إنقاذًا.

وكذلك في الطبيعة؛ موت بعض الكائنات ليس عبثًا، بل جزء من توازن بيئي يحفظ الحياة.

إذًا، ما نراه شرًا نسبيًا قد يكون جزءًا من خير كلي لا نراه بعد.

ومن الأمثلة التي تُثير التساؤل: الزلازل، فهي في ظاهرها مأساة وألم وخسائر، وهذا صحيح من زاويتنا الإنسانية المباشرة. لكن المؤمن لا ينظر إلى الحدث من لحظة الألم وحدها، بل إلى الصورة الأوسع؛ فقد تكون سببًا في ظهور أعظم صور الرحمة والتكافل بين الناس، أو رفعةً لدرجات الصابرين، ورحمةً لمن مات فيها، أو إيقاظاً لقلوبٍ قست ...

فما نراه نـحن شرًا جزئيًا قد يكون جزءًا من حكمة أكبر تتجاوز اللحظة العابرة.

رابعًا: محدودية العقل البشري أمام الحكمة الإلهية

العقل الذي قادنا إلى الإيمان بوجود خالق حكيم، يجب أن يقودنا أيضًا إلى الاعتراف بحدود إدراكنا.

فنحن لا نرى إلا جزءًا صغيرًا من الصورة.

ومطالبة الإنسان بفهم كل حكمة إلهية في كل حادثة، تشبه مطالبة طفل صغير بفهم نظريات معقدة تتجاوز قدرته.

القصور ليس في الحكمة... بل في أداة الفهم.

ولهذا كانت قصة موسى والخضر مثالًا عظيمًا؛ فقد بدا لموسى أن بعض الأفعال شر محض، ثم انكشف لاحقًا أن وراءها رحمة وخيرًا.

خامسًا: لماذا يمرض الأطفال؟ ولماذا يتألم الأبرياء؟

هذا من أصعب الأسئلة وجدانيًا.

لكن الإجابة تبدأ بفهم أن الدنيا ليست نهاية القصة.

في المنظور الإسلامي، ندرك أن الدنيا مرحلةٌ مؤقتة، والآخرة هي دار الجزاء والبقاء الأبدي.

والطفلُ حين يتألم، فإنه ليس غائبًا عن عناية الله؛ بل هو في قلبِ عدلهِ ورحمته المطلقة.

أما الحكمة التفصيلية من هذا الألم فقد تكون من أسرار القدر التي لا نحيط بها علمًا، لكننا نؤمن أن الله لا يقدّر شيئًا عبثًا ولا ظلمًا.

وقد ضرب النبي ﷺ مثالًا بليغًا يبين ضآلة آلام الدنيا أمام نعيم الآخرة، فقال:

«ويُؤْتَى بأَشَدِّ الناسِ بُؤْسًا في الدنيا من أهلِ الجنةِ ، فيُصْبَغُ في الجنةِ صَبْغَةً ، فيقالُ له : يا ابنَ آدمَ ! هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ ؟

هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فيقولُ : لا واللهِ يا رَبِّ ! ما مَرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ »[1].

فإذا كانت غمسة واحدة في الجنة تنسي أشد الناس بؤسًا كل ما لقيه من ألم، أدركنا أن ما يبدو لنا اليوم معاناةً قاسية قد يكون في ميزان الآخرة شيئًا يسيرًا أمام نعيمٍ أبدي لا ينقطع.

سادسًا: الكوارث والسنن الكونية

خلق الله الكون وفق قوانين ثابتة تحفظ انتظام الحياة.

فالنار تحرق، والجاذبية تُسقط، والماء قد يُغرق.

هذه السنن هي التي تجعل العلم ممكنًا، والحياة مستقرة.

ولو تعطلت القوانين كلما أراد الإنسان ذلك، لتحول الكون إلى فوضى.

لذلك فالكوارث ليست خروجًا عن النظام... بل جزء من نظام كوني أعظم، قد تظهر فيه حكم تربوية وإنسانية واجتماعية لا ندركها فورًا.

---

(1) أخرجه مسلم.

سابعًا: الشر يكشف معادن النفوس

العالم الخالي من الألم قد يبدو جذابًا... لكنه سيكون عالمًا بلا بطولة، وبلا تضحية، وبلا صبر، وبلا رحمة.

فالألم هو الذي يُخرج أجمل ما في الإنسان.

بدون الفقر، لا يظهر الكرم.

وبدون الظلم، لا تظهر الشجاعة.

وبدون المعاناة، لا تتشكل النفوس العظيمة.

كما أن المصمم يحتاج إلى الظل ليُبرز قيمة النور... فإن وجود الابتلاء يكشف قيمة النعيم.

الخلاصة:

الشر لا ينفي وجود اللّه... بل يدل على حكمته.

معضلة الشر لا تُحل بإنكار وجود اللّه؛ لأن ذلك لا يفسر الألم، بل يجعله عبثًا بلا معنى.

أما الإيمان، فيمنح الألم معنى، والابتلاء غاية، والمعاناة أفقًا يتجاوز الدنيا.

قد لا نفهم كل الحكمة الآن...

لكن العقل الذي عرف الخالق، يستطيع أن يثق بحكمته حتى فيما يعجز عن تفسيره.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

هل مررت يومًا بموقف لم تفهم حكمته في حينه ثم اتضحت لك بعض معانيه لاحقًا؟ ماذا يخبرك ذلك عن نظرتك للابتلاء؟

....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....
....

الشبهة السادسة

شبهة زواج السيدة عائشة



زواج السيدة عائشة: فهم الحقيقة بعيدًا عن "الإسقاط التاريخي"

حين يُثار موضوع زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة، يقع الكثيرون في خطأ منهجي يسمى الإسقاط الزمني؛ وهو محاكمة أحداث وقعت قبل ١٤٠٠ عام بمعايير وقوانين القرن الحادي والعشرين.

ولكن لنرى الحقيقة بإنصاف، يتوجب علينا قراءة هذا الحدث ضمن سياقه التاريخي والاجتماعي الخاص، بعيدًا عن إسقاط مفاهيمنا المعاصرة على واقعٍ عاشه أجدادنا في ظروفٍ مغايرة تمامًا.

أولاً: معيار البلوغ لا "العمر الرقمي"

في العصور القديمة، لم يكن **العمر الرقمي** هو المقياس، بل كان **البلوغ الجسدي** والقدرة على تحمل المسؤولية هو المعيار الوحيد للزواج في كافة الحضارات (الرومانية، الفارسية، والقبائل العربية).

ومن الناحية البيولوجية، من المعروف أن الفتيات في المناطق الحارة والبيئات الصحراوية يكتمل نموهن الجسدي في سن مبكرة جدًا مقارنة بالمناطق الباردة. لقد كانت عائشة بمعايير زمانها وبيئتها **امرأة ناضجة** لا طفلة.

ثانيًا: صمت الأعداء.. الشهادة الأقوى

كان للنبي ﷺ أعداء كثر من قريش واليهود والمنافقين، يتربصون به ليرموه بأي تهمة تشين سمعته.

ورغم هذا التربص الشديد، لم يُسجل التاريخ أن أحدًا من أعدائه المعاصرين له – رغم شدة عدائهم – قال: "كيف يتزوج طفلة؟" أو "هذا فعل غير أخلاقي". لماذا؟

لأن الفعل كان طبيعيًا جدًا في عُرفهم، ولم يجدوا فيه أي ثغرة ينتقدونه بها.

وما يؤكد ذلك تاريخيًا أن السيدة عائشة كانت قد خُطبت بالفعل قبل النبي ﷺ لرجل من قريش وهو "جُبير بن مُطعِم" (قبل أن يفسخ أهل الخاطب الخطبة خوفًا من تأثير إسلام أبي بكر عليهم)، مما يعني أنها كانت تُعد في نظر المجتمع المكي آنذاك صالحة ومؤهلة للزواج بمقاييس عصرهم.

ولو كان في الأمر أدنى غرابة لزمانهم، لكان أعداؤه أول من شهّر به، لكن صمتهم، بل وسبق خِطبتها لغيره، هو "شهادة براءة" تاريخية تثبت أن هذا الزواج كان متسقًا تمامًا مع الأعراف والتقاليد الطبيعية في ذلك العصر.

ثالثًا: عائشة.. "المشروع العلمي للأمة"

لم يكن زواج السيدة عائشة مجرد زواج عادي، بل كان بعثة تعليمية؛ فقد وهبها الله ذكاءً حادًا وملكة حفظ استثنائية، ووجودها في بيت النبوة في سن تكوينها الذهني جعل منها أكبر مرجع علمي في تاريخ الإسلام.

- لقد روت عائشة أكثر من 2200 حديث نبوي.
- كان كبار الصحابة يذهبون إليها لتفتيهم في أعقد مسائل الطب، والشعر، والمواريث، والفقه. ولولا هذا الزواج، لَفُقد جزء ضخم من الإرث النبوي المتعلق بتفاصيل حياة الإنسان الخاصة وشؤون الأسرة.

رابعًا: الحب والوفاء (الجانب الإنساني)

لم تكن عائشة ضحية أو تابعة مهمشة، بل كانت الزوجة الأكثر قربًا ودلالاً لقلب النبي ﷺ. كان يسابقها في الصحراء، ويشرب من حيث تشرب حبًا لها. وعاشت بعد وفاته عقودًا وهي تذكره بأجمل الكلمات، وتنشر علمه بوقار وفخر. هذا الارتباط العاطفي العميق والقيادة العلمية التي مارستها بعده ينفيان تمامًا فكرة الظلم أو سلب الإرادة التي يحاول البعض تصويرها اليوم.

خامسًا: نظرة على قوانين العالم

ولإتمام الصورة، يجدر بنا التذكير بأن قوانين الزواج في أوروبا – حتى زمنٍ ليس ببعيد – كانت تعتبر سن الثانية عشرة سنًا معتمدةً للزواج، كما في تشريعات الكنيسة الكاثوليكية.

وهذا لا يعني بالضرورة تراجعًا أخلاقيًا لتلك العصور، بل يؤكد أن سن الزواج كان خاضعًا دائمًا لتقدير النضج وفقًا لظروف كل مجتمعٍ وزمانه، وليس بناءً على معايير ثابتة وموحدة لكل البشر عبر العصور.

الخلاصة:

لقد أعدّ الله السيدة عائشة لتكون خزانة أسرار النبوة ومنبع العلم للنساء والرجال على حد سواء. زواجها كان تقديرًا لعقلها ومكانتها، وبناءً لشخصية قيادية غيرت مجرى التاريخ العلمي الإسلامي، وأما من ينتقد زواج الرسول ﷺ منها بعقلية اليوم، هو كمن يعيب على **نيوتن** لأنه لم يستخدم **الكمبيوتر** في حساباته!

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

عند استقراء الحقائق التاريخية بعيدًا عن إسقاطات العصر الحديث، كيف يمكننا تفسير وقائع السيرة النبوية بشكل متزن ومنصف؟

الشبهة السابعة

شبهة ظلم المرأة في الإسلام



أولاً: خديعة الزاوية الضيقة (فن النظرة المجتزأة)

تخيل أنك تقف أمام لوحة جدارية ضخمة، مرسومة بدقة متناهية، لكن أحدهم وضع ستارًا على اللوحة كلها، ولم يترك لك سوى ثقب صغير جدًا لا تستطيع أن ترى منه إلا لونًا واحدًا، وليكن اللون الأسود.

بالتأكيد ستحكم فورًا: "يا لها من لوحة كئيبة ومظلمة!".

هذا بالضبط ما يحدث حين يتم طرح قضايا المرأة في الإسلام.

يتم تسليط الضوء عبر ثقب صغير على حكم شرعي واحد، ويُنتزع من سياقه، ويُعرض بعيدًا عن منظومة الحقوق والواجبات المتكاملة، فيبدو الحكم للناظر من الثقب "ظالمًا" أو "مقيدًا".

لماذا يرى البعض الأحكام كـ "قيود"؟

المشكلة ليست في الحكم، بل في الزاوية التي ينظر المرء منها.

نـحن نعيش في عصر المساواة الميكانيكية، عصر أقنع المرأة أن قيمتها لا تتحقق إلا إذا فعلت تمامًا ما يفعله الرجل، فصار أي اختلاف في الحكم الشرعي بينهما يُفسر فورًا على أنه انتقاص.

لكن الحقيقة أن الإسلام لا ينظر للمرأة والرجل كخصمين في حلبة مصارعة، بل كـ **روحين في جسد واحد للأمة**.

تفكيك الشبهة: كيف يُصنع الوهم؟

إن أي شبهة حول وضع المرأة في الإسلام تعتمد على سلاح واحد: **الاجتزاء.**

فمثلا يحدثونكِ عن قوامة الرجل ويصمتون عن وجوب خدمته لها وإنفاقه عليها.

في هذا الفصل، سنقوم معًا بإزالة الستار عن اللوحة كاملةً؛ لن نكتفي بالنظر من ثقبٍ صغير، بل سنرى التصميم الإلهي في أبهى صوره، حيث كُل قطعةٍ وُضعت في مكانها الصحيح، لتُشكل في النهاية لوحةً متكاملةً، نلمس فيها حكمة الخالق في بناءِ مجتمعٍ متناغمٍ يسوده الاستقرار والتوازن والعدل.

المرأة عبر التاريخ (من الوأد إلى التسليع)

لكي نعرف قيمة النور في الإسلام، لا بد أن نلقي نظرة سريعة على الظلام الذي سبقه، والظلام الذي يحاول تغليفنا اليوم تحت مسميات براقة.

1. المرأة في الجاهلية: (حين كانت تُعامل كتركةٍ تُورَّث)

قبل الإسلام، لم تكن المرأة إنسانًا كاملاً في نظر المجتمع الجاهلي. بل كانت عبئًا يُخشى عاره، أو متاعًا يُورث كما تُورث الأموال والمتاع!

- الوأد: كان الأب يدفن ابنته حية لمجرد أنها أنثى، والقرآن سجل هذه الجريمة بسؤال يهز الأركان: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير:8-9].
- الحرمان من التملك: لم يكن لها حق في قرش واحد، بل كانت هي نفسها جزءًا من تركة الرجل المتوفى، يأخذها ورثته كحق مكتسب!

2. المرأة في الفكر الغربي: "هل لها روح؟"

قد يظن البعض أن الغرب كان أرحم، لكن التاريخ يقول شيئًا آخر تمامًا:

- في بعض المجامع الدينية القديمة في أوروبا، دارت نقاشات فلسفية مخجلة: هل المرأة إنسان أم حيوان؟ وهل لها روح تدخل الجنة أم أنها مجرد وسيلة لإغواء الرجل؟
- حتى وقت قريب جدًا (القرن التاسع عشر وأوائل العشرين)، كانت القوانين في دول عظمى تمنع المرأة من حق التملك أو التصرف في مالها دون إذن زوجها.

3. من التهميش إلى التكريم: المرأة في ظل الإسلام

وسط هذا الظلام الدامس، جاء الإسلام بـ زلزال تشريعي:

- جعلها وارثة بعد أن كانت مُوَرَّثة .
- جعلها ذاتًا مستقلة لها ذمة مالية لا يجرؤ أحد على مسها.
- أعطاها حق الحياة وجعل الجنة تحت أقدامها كأُمٍّ، وجعلها سترًا من النار كابنةٍ، و أوصى بها النبي ﷺ وصاياه الأخيرة للأمة.
- جاء الإسلام ليقلب الطاولة، ويطلق صيحته المدوية على لسان نبيه ﷺ: "**إنما النساء شقائق الرجال**". كلمة **شقائق** في اللغة تعني أن الشيء انشق لنصفين متساويين؛ فلا فضل لأحد النصفين على الآخر في أصل الكرامة والوجود.

و لكن عند النظر لمسألة تقسيم المسئوليات و الواجبات بين الرجل و المرأة فنحن نـحتاج لفهم فلسفة التشريع التي تقوم على تكامل الأدوار لا التفاضل، وعلى مراعاة طبيعة الخلقة التي قال عنها الله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾[سورة آل عمران:36].

فلسفة العدل لا المساواة الآلية:

العالم اليوم يطالب بمساواة آلية، لكن الإسلام جاء بـ **العدل**.

المساواة أن تعطي الرجل والمرأة نفس التكليفات رغم اختلاف طبيعتهم، وهذا ظلم.

تخيلوا لو أجبرنا الرجل على إجازة وضع، أو أجبرنا المرأة على ترك أطفالها الصغار للالتحاق بالجيوش و خوض الحروب، لكان هذا قمة الامتهان لخصوصية كل جنس.

الإسلام ساوى بينهما في **الأصل** (العبادات، الأجر، العلم، الحقوق المدنية)، وفرّق بينهما في **الوظيفة**؛ فالرجل كُلِّف بالعمل والكدح والحماية، والمرأة كُفيت مؤنة الكدح لتتفرغ لبناء الإنسان (الأمومة والرعاية).

4. المرأة (الملكة المتوجة) ماديًا

في الغرب، تخرج المرأة للعمل لأنها مضطرة لتقاسم الفواتير مع الرجل.

بينما في المنظومة الإسلامية، المرأة معفية ماديًا بقرار إلهي، والرجل مُسخر لخدمتها بقرار إلهي أيضًا.

ففي الإسلام، المرأة مكفولة ماديًا من المهد إلى اللحد؛

- هي ابنة: أبوها ملزم برعايتها والإنفاق عليها.
- هي زوجة: زوجها ملزم بالإنفاق عليها حتى لو كانت هي أغنى منه.
- هي أم: ابنها ملزم ببرها والإنفاق عليها عند حاجتها. هذا ليس مجرد كرم من الرجل، بل هو قانون إلهي يطوق عنقه من لحظة ولادتها وحتى مواراتها الثرى.

الإسلام أراد للمرأة ألا تذلها الحاجة، وألا يكسر أنوثتها السعي في مناكب الأرض بحثًا عن لقمة العيش، فجعل رزقها يأتيها وهي مكرمة في خدرها.

5. هندسة المشاعر: لماذا هي الأم؟

الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا ما آتاها من أدوات.

• المرأة: خُلقت بفيض من الحنان، وعاطفة جياشة تغلب منطق الأرقام الصامت. لماذا؟ لتكون هي **الحضن** الذي يستوعب ضعف الطفل، والرئة التي يتنفس منها البيت الهدوء.

هذا الدور ليس وظيفة بل هو مهمة مقدسة تتناغم مع فطرتها التي جُبلت على العطاء والاحتواء.

• الرجل: خُلق بتركيبةٍ نفسيةٍ وعضليةٍ تميل للمواجهة، والصلابة، والكدح؛ فهو يجيد لغة العمل وحماية الحدود.

وعليه.. فإن هذا التباين الفطري بين الجنسين ليس صدفة، بل هو تصميمٌ دقيقٌ لغاياتٍ تكاملية.

تخيل لو عكست الأدوار؛ لو طُلب من الرجل – بجفائه المعتاد – أن يرعى طفلاً رضيعًا بنفس صبر الأم، أو طُلب من المرأة – برقتها – أن تمتهن الأعمال الشاقة كتشييد الكباري أو العمل في مواقع البناء. هنا يكمن العبث؛ أن تُجبر كائنًا على فعل ما يتنافى مع كتالوج خلقه.

6. التكامل: لغز العدل والمساواة

دعونا نضع النقاط على الحروف في الفرق الذي يخلط بينه الكثيرون:

- تخيل لو أننا نملك شاحنة نقلٍ ضخمة، وسيارة أنيقة من أحدث طراز، وقررنا فجأة أن نعاملهما بـ **المساواة المطلقة** في كل شيء:

- المساواة هنا تعني: أن نُـحمّل السيارة الصغيرة نفس أطنان الحديد التي تحملها الشاحنة، وأن نُـجبرها على السير في نفس الطرق الجبلية الوعرة بنفس السرعة والظروف.. النتيجة؟

ستتحطم السيارة الأنيقة، ويحترق محركها، وتتفكك أجزاؤها في أول كيلومتر؛ ليس لأنها ضعيفة أو رديئة، بل لأنها ببساطة لم تُصنع لهذه المهام الشاقة.

لقد ظلمناها حين سوّيناها بغيرها في الوظيفة.

- أما العدل فيعني: أن نترك للشاحنة مهام الجر والتحميل والكدح لأن هذا هو كتالوج صنعها وقوة محركها، ونترك للسيارة الأنيقة مهام الانسيابية، والراحة، والجمال لأن هذا هو سر تميزها.

وهذا هو الفارق الجوهري:

المساواة التي يطالبونكِ بها هي أن تُحمّلي قلبكِ الرقيق ونفسيتكِ الحساسة وتكوينكِ الجمالي أعباء الرجل وصراعاته المادية الخشنة، والنتيجة الحتمية هي **احتراق** روحكِ واستنزاف أنوثتكِ.

القاعدة: المساواة في القيمة لا تعني المساواة في الاستخدام.

نـحن نساوي بين الشاحنة والسيارة الأنيقة في كونهما (وسائل نقل)، لكننا نعدل بينهما حين نعطي كل واحدة منهما المهمة التي تبدع فيها وتناسب كتالوج صنعها.

إن المساواة التي تدعو لها النسوية اليوم هي مساواة الندية؛ كأننا نقول للعين كوني أُذنًا، وللأذن كوني عينًا لكي نتساوى!

أما عدل الإسلام فهو **التكامل**؛ العين تبصر والأذن تسمع، وبكليهما يكتمل الإنسان.

الرجل يحمي وينفق، والمرأة تبني وتربي، وبكليهما تعز الأمة.

الخلاصة:

المرأة في الإسلام ليست نسخة كربونية من الرجل، بل هي القسيم المتمم له. التقاسم هنا ليس تقسيمًا للغنائم، بل هو توزيع للمهام لكي تسير سفينة الأسرة في بحر الحياة دون أن تغرق.

في مهب الريح.. العلمانية والنسوية مقابل الإسلام

بعد كل ما قلناه، لماذا يصر العالم على دفع المرأة نـحو المساواة المطلقة؟ الحقيقة أن خلف هذه الشعارات البراقة تختبئ تجارة كبرى؛ تجارة عنوانها: (**تسليع المرأة**).

فخ المساواة: كيف تحولت المرأة إلى رجل ثانٍ؟

النسوية المتطرفة لم تحرر المرأة، بل أعادت برمجتها لتكون نسخة مشوهة من الرجل.

أوهموكِ أن نـجاحكِ مرتبط بقدرتكِ على الخروج من بيتكِ، ومنافسة الرجال في ميادينهم، وتحمل أعبائهم. والنتيجة؟ امرأة مرهقة تحاول أن تثبت للعالم أنها تستطيع، بينما هي في الحقيقة تخسر هدوءها، وسكينتها، وفطرتها الرقيقة.

في العلمانية: أنتِ قيمة بقدر ما تنتجين وتربحين ماديًا.

في الإسلام: أنتِ قيمة لأنكِ **إنسانة**.. مكرمة بوجودكِ ذاته، لا بحجم أرباحكِ.

تسليع الأنوثة.. الحرية الموهومة

يتحدثون عن حرية الجسد، لكن انظري جيدًا للإعلام والإعلانات:

- لماذا تُستخدم المرأة كـ **دعاية** لبيع سيارة؟
- لماذا تُجبر المرأة على معايير جمال قاسية ولباس معين لتكون مقبولة اجتماعيًا أو مهنيًا؟ هذا هو **التسليع**؛ أن تتحول الأنوثة إلى سلعة تُباع وتُشترى، وإلى وسيلة لجذب الانتباه وزيادة المبيعات.

لقد أخرجوها من ستر الإسلام وعزته ليدخلوها في استعراض المادية **وابتذالها**.

رفقًا بالقوارير.. دستور المشاعر

في المقابل، انظري إلى رقة الإسلام في التعامل مع طبيعة المرأة. النبي ﷺ لم يقل "عاملوهن كمعدات إنتاج"، بل قال: "رفقًا بالقوارير".

- القوارير: تشبيه نبوي يجمع بين الجمال والصفاء وبين الرقة والشفافية. هي زجاجة غالية، رؤيتها تسر العين، لكن كسرها سهل، لذا تحتاج لتعامل خاص، رفيق.
- الإسلام لا يريدكِ خشنة تصارعين الأمواج، بل يريدكِ سكنًا تأوي إليه القلوب.

الخلاصة: الندية أم السكن؟

العلمانية والنسوية قدمتا للمرأة الندية؛ فصارت تعيش في صراع دائم مع الرجل، وصارت البيوت حلبات مصارعة على من يملك ومن ينفق.

أما الإسلام فقدم لها السكن؛ حيث الرجل يحوطها بحمايته وكَدِّهِ، وهي تحوطه بحنانها ورعايتها، في توازن بديع يجعل الحياة جنة لا معركة.

هنا.. قد يبرز تساؤل منطقي ومحق:

"إذا كان الإسلام قد كفل المرأة ماديًا، فلماذا نرى نساءً مسلمات يضطررن للعمل الشاق لأنهن لا يجدن رجلاً يعولهن؟"

هذه حقيقة لا ننكرها، ولكن أتدري لماذا؟

لأن العالم الإسلامي اليوم ابتعد عن تطبيق الشريعة الإسلامية كمنظومة متكاملة.

ففي عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، كانت هناك أوقاف (صناديق خيرية) من بيت مال المسلمين مخصصة لكل امرأة لا معيل لها، لتبقى مكفولة بكرامتها. وما نراه اليوم من شقاءٍ لبعض النساء ليس عيبًا في التشريع، بل هو ثمرةٌ مُرّةٌ لغيابِ هذا النظام التشريعي الشامل.

فالعيب هنا في **"التطبيق"** لا في **"التشريع"**.

أرأيتَ إن اشتريت جهازًا جديدًا، ومعه كتيب إرشادات يشرح طريقة التشغيل، فقررت أن تتجاهله وتركب الوصلات الكهربائية بطريقة خاطئة، فخرب الجهاز.. هل تلوم المصنع أم تلوم سوء استخدامك؟

كذلك الإسلام، هو الكتالوج الإلهي لإدارة الحياة؛ فإذا ألقينا الكتيب جانبًا، لا ينبغي أن نلوم الخالق على خلل تسببنا فيه بأيدينا.

ثانيًا تعدد الزوجات: هل هو إهانة للمرأة أم حل واقعي؟

من أكثر الأسئلة التي تؤلم كثيرًا من النساء:

"لماذا يسمح للزوج في الإسلام بالزواج بأخرى؟ أليس هذا انتقاصًا من المرأة؟"

ولفهم هذه القضية، يجب أن ننظر إليها بعيدًا عن الصورة العاطفية المجردة، وننظر إلى التشريع كاملًا.

1. الإسلام لم يخترع التعدد... بل قنّنه

التعدد لم يبدأ مع الإسلام. فقد كان موجودًا في حضارات كثيرة قبل الإسلام، وغالبًا بلا عدد محدد، وبلا ضمانات، وبلا حقوق واضحة للنساء.

فجاء الإسلام لا ليبتكر التعدد، بل ليضع له حدودًا صارمة:

أربع زوجات كحد أقصى، بعد أن كان الباب مفتوحًا بلا سقف.

ثم وضع الشرط الأخطر:

(العدل)

أي العدل في النفقة، والسكن، والوقت، والحقوق، والمعاملة.

وهذا وحده يجعل التعدد في الإسلام مسؤولية ثقيلة لا مساحة مفتوحة للعبث.

ولهذا قال الله تعالى:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾[سورة النساء:3].

لاحظي أن الأصل الذي يدفع إليه القرآن عند خوف الظلم هو: واحدة.

2. التعدد في الإسلام قد يكون حل لواقع إنساني

فهناك ظروف إنسانية معقدة قد يكون فيها التعدد حلًا أكثر رحمة من البدائل الأخرى.

مثل:

- مرض الزوجة مرضًا يؤثر في استمرار الحياة الزوجية بشكل طبيعي مع رغبة الزوج في بقاء الأسرة.
- وجود أرامل أو مطلقات يحتجن إلى الاستقرار الأسري.

- تفاوت أعداد النساء والرجال في بعض المجتمعات بعد الحروب أو الأزمات.

- حماية بعض الرجال من الانـحراف أو العلاقات السرية المحرمة.

في مثل هذه الحالات، قد يكون التعدد – مع العدل والمسؤولية – أقل ضررًا من الطلاق، أو الخيانة، أو العلاقات غير الشرعية.

إذًا الإسلام لم يفتح باب الفوضى... بل قدم حلًا واقعيًا داخل إطار أخلاقي واضح.

3. ماذا عن مشاعر المرأة وغيرتها؟

الإسلام لم يتجاهل مشاعر المرأة أبدًا.

فالغيرة بين الزوجات أو حتى مجرد الغيرة من فكرة المشاركة العاطفية، أمر فطري جدًا في طبيعة المرأة، ولم ينكره الإسلام. بل حتى أمهات المؤمنين – وهن أطهر نساء الأمة – ظهرت منهن الغيرة، والنبي ﷺ تفهم ذلك وتعامل معه بحكمة ورحمة، مما يدل أن الغيرة ليست ضعفًا ولا نقصًا... بل شعور إنساني طبيعي.

لكن المشكلة أن الثقافة الحديثة، من خلال بعض الأعمال الدرامية وبعض الخطابات الإعلامية، أعادت تفسير هذا الشعور

الفطري على أنه دائمًا إهانة للكرامة أو إثبات أنكِ أقل قيمة.

فانتقلت القضية من كونها مشاعر إنسانية تحتاج نضجًا وإدارة... إلى كونها معركة كرامة وصراع قوة.

بينما الإسلام لم يربط التعدد بقيمة المرأة أبدًا.

فالزوجة الأولى لا تفقد مكانتها عند الله، ولا أنوثتها، ولا قيمتها الإنسانية إذا اختار الزوج – ضمن الضوابط الشرعية – الزواج مرة أخرى.

إذًا الألم العاطفي قد يكون طبيعيًا... لكن تفسير هذا الألم على أنه إهانة ليس دائمًا فطريًا، بل كثيرًا ما تصنعه الثقافة المحيطة وطريقة تصوير العلاقات.

4. هل المرأة مجبرة على قبول التعدد إذا كان فيه ضرر محقق عليها؟

الإجابة: (لا).

فالإسلام لم يترك المرأة في حال وقوع الضرر دون مخرج؛ فإذا ترتب على التعدد ضررٌ حقيقيٌّ واقعٌ عليها لا تستطيع تحمُّلَه، أو اختلالٌ شديدٌ في حقوقها ومعاشرتها، فلها أن تلجأ إلى الطلاق أو طلب التفريق عبر القضاء الشرعي، عملاً بقاعدة الإسلام العامة: **"لا ضرر ولا ضرار"**.

أي أن أي علاقة زوجية لا يُفترض أن تتحول إلى مصدر أذىً مستمرٍ لأحد الطرفين دون حلٍّ أو رفعٍ للضرر.

ليس ذلك فحسب، بل إن من حق المرأة عند عقد الزواج أن تشترط على الزوج ألا يتزوج عليها، وإذا قَبِلَ هذا الشرط أصبح مُلزمًا به. وهذا يدل على أن الإسلام لم يعطِ الرجل صلاحياتٍ مطلقةً، بل وضع منظومةً تحفظ حقوق الطرفين وتراعي اتفاقهما منذ البداية.

الخلاصة

التعدد في الإسلام ليس إهانة للمرأة، ولا تشريعًا للهوى.

بل هو حل عملي منظم لحالات إنسانية واقعية، مقيد بالعدل، والمسؤولية، والقدرة.

قد يكون مؤلًما عاطفيًا في بعض الحالات، لكن التشريعات لا تُبنى على المشاعر وحدها، بل على مصلحة الإنسان والمجتمع على المدى البعيد.

ثالثًا ميراث المرأة في الإسلام

من أكثر الأسئلة إثارة للجدل:

"إذا كان الإسلام يساوي بين الرجل والمرأة في الكرامة الإنسانية، فلماذا نـجد في بعض حالات الميراث أن المرأة تأخذ نصف نصيب الرجل؟"

والحقيقة أن السؤال نفسه يقوم غالبًا على تصور غير مكتمل.

1. "نصف الرجل" ليست قاعدة عامة

من الأخطاء الشائعة اختزال نظام الميراث كله في آية واحدة:

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [سورة النساء:11].

فيظن البعض أن المرأة دائمًا ترث نصف نصيب الرجل، وهذا غير صحيح.

فالمرأة في علم الفرائض قد:

- ترث مثل الرجل في بعض الحالات.
- وترث أكثر من الرجل في حالات أخرى.
- وقد ترث المرأة بينما لا يرث الرجل أصلًا.

إذًا القضية ليست قاعدة ثابتة تقول: ميراث المرأة نصف ميراث الرجل، بل نظام توزيع أدق من ذلك بكثير.

2. الإسلام لا يوزع القيمة.. بل يوزع المسؤوليات

الميراث في الإسلام لا يقيس قيمة الإنسان عند الله، بل ينظم الحقوق والواجبات المالية داخل الأسرة والمجتمع.

فحين يأخذ الرجل في بعض الحالات نصيبًا أكبر، فهذا ليس لأنه **أفضل**، بل لأنه مُلزَم ماليًا بما ليس على المرأة.

فهو المسؤول شرعًا عن:

النفقة على زوجته.

النفقة على أولاده.

النفقة على أسرته عند الحاجة.

تحمل أعباء السكن والمعيشة.

بينما المرأة – حتى لو كانت غنية – ليست مُلزَمة شرعًا بالإنفاق على زوجها أو بيتها من مالها.

3. المرأة في الإسلام تغنم ولا تغرم

وهنا تظهر دقة التشريع.

فالمرأة تأخذ نصيبها من الميراث ليكون ملكًا خالصًا لها.

لا يملك الأب، ولا الزوج، ولا الأخ أن يجبرها على الإنفاق منه.

أما الرجل، فما يأخذه غالبًا لا يبقى له وحده، بل يتحول إلى مسؤوليات ونفقات واجبة عليه.

بمعنى آخر:

هي تأخذ لتملك.

وهو يأخذ لينفق.

الخلاصة

الإسلام لم يجعل الميراث مقياسًا لقيمة الإنسان... بل جزءًا من نظام عدالة متكامل.

فالعدل ليس دائمًا أن يأخذ الجميع الرقم نفسه...

بل أن يأخذ كل طرف ما يتناسب مع مسؤولياته والتزاماته.

ولهذا لم ينظر الإسلام إلى: "من الذكر؟ ومن الأنثى؟" فقط...

بل نظر أيضًا إلى: من الذي يتحمل النفقة؟ ومن الذي يتحمل العبء المالي؟

ومن هنا نفهم أن نظام الميراث في الإسلام ليس تفضيل جنس على جنس... بل توزيع مسؤوليات بعدل وحكمة.

رابعًا هل الحجاب قيد على حرية المرأة؟

من أكثر التساؤلات والشبهات تكرارًا في الفضاء الثقافي المعاصر: "إذا كان الإسلام لا يظلم المرأة، فلماذا يفرض عليها الحجاب؟ أليس في هذا تقييد لحريتها الشخصية؟"

وللإجابة عن هذا السؤال بعمق، يحتاج المرء أولاً إلى تفكيك مفهوم **الحرية** نفسه وإعادة قراءته من زوايا مختلفة:

1. مفهوم الحرية بين الإطلاق والمنظومة

في الواقع، لا يوجد إنسان في هذا العالم يعيش بلا ضوابط أو قيود؛ فالأمر ليس خيارًا بين حرية مطلقة وقيود تامة، بل هو طبيعة العيش في مجتمعات بشرية.

فالطبيب يلتزم بأخلاقيات مهنة صارمة.

والقاضي يتحرك في حدود نصوص القانون.

والرياضي يخضع لبرامج تدريبية ونظام غذائي محدد للوصول إلى هدفه.

حتى في مسألة المظهر واللباس، تضع المجتمعات الإنسانية الحديثة حدودًا وقواعد صارمة وتتقبلها طواعية دون أن تعتبرها قمعًا؛ فالطالب يلتزم بالزي المدرسي، ورجل الإطفاء له لباس

يحميه، والموظف في الشركات الكبرى يخضع لـ **"قواعد الزي"** (Dress Code) التي تعكس هوية المؤسسة ورسالتها.

إذا كان الإنسان يتقبل، بل ويحترم، الضوابط التي تضعها المؤسسات البشرية لأهداف دنيوية وتنظيمية، فلماذا يستغرب أن يضع خالق الإنسان توجيهات في اللباس لأهداف أخلاقية، وإنسانية، وروحية أعمق؟

إذًا، فلا تكمنُ القضيةُ في جوهر التقييد، وإنما في المشرِّعِ لهذا التوجيه، ومدى إحاطتهِ بأسرارِ النفسِ البشرية وما يُحققُ صلاحها.

2. الحجاب كإعادة تعريف لقيمة المرأة

في الكثير من الثقافات المادية الحديثة، تُختزل قيمة المرأة – بقصد أو بدون قصد – في حدود شكلها الخارجي، وجاذبيتها الجسدية، ومدى مواكبتها لمعايير الجمال المتقلبة التي تفرضها أسواق الموضة والاستهلاك.

أما الحجاب فيقدم فلسفة مغايرة تمامًا؛ إنه إعلان صريح بأن: قيمتكِ كإنسانة تكمن في جوهركِ لا في مظهركِ.

أنتِ عقل، وروح، ورسالة، وشخصية مستقلة.

الحجاب هنا لا يخفي المرأة ولا يلغي حضورها، بل يرفض اختزالها في بُعدها الجسدي، مما يجبر المجتمع على التعامل مع فكرها وعطائها الإنساني قبل أي شيء آخر.

3. جمال المرأة وحكمة الحماية الإلهية

خلق الله المرأة وجعل فيها قدرًا ظاهرًا من الجمال والزينة، وجعل فيها ما يلفت الأنظار ويبعث على الانـجذاب، في إطار من الحكمة والتوازن في الخلق.

من هنا جاءت تشريعات الاحتشام؛ ليس لمحاربة هذا الجمال أو كبته، بل لتنظيم موضع إظهاره.

فالمرأة في الإسلام مدعوة إلى ممارسة الزينة في سياقها الصحيح والآمن، بحيث تبقى خصوصيتها محفوظة في إطارها المناسب.

وقد أقرّ القرآن الكريم هذه الطبيعة الفطرية في قوله تعالى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف:18].

فالزينة والتأنق جزء من كيان الأنثى. وإنما جاء التشريع الإلهي الحكيم لا ليمنع المرأة من التزين، بل ليحدد نطاق ظهور زينتها، فحدد بدقة مَن يُسمح له برؤية هذه الزينة ومَن لا يُسمح له.

وبذلك، فتح الإسلام للمرأة مساحات واسعة ورحبة لتمارس فطرتها بكل أريحية وحرية؛ فلها أن تتزين كما تحب أمام زوجها، وأمام محارمها (كالأب، والأخ، والابن، والعم، والخال، وأبناء الإخوة والأخوات، وغيرهم من المحارم)، وفي مجتمعات النساء الخاصة، وأمام الأطفال الصغار.

فالمسألة ليست حرمانًا من الجمال، بل هي صيانة له ليبقى غاليًا ومحفوظًا في مكانه الصحيح.

وهنا يتجلى بُعدٌ آخر للحجاب، وهو **(البُعد الوقائي)** في عالم واقعي وغير مثالي.

فالإسلام ينظر إلى الطبيعة البشرية بواقعية شديدة؛ لقد خُلقت المرأة وفيها جاذبية فطرية، وخُلق الرجل بامتلاك استجابة قوية لهذه الجاذبية.

وفي كل مكان – مع الأسف – يوجد دائمًا من لا يملكون كابحًا أخلاقيًا أو انضباطًا ذاتيًا، فيسمحون لأنفسهم بانتهاك خصوصية المرأة أو إيذائها بسبب رغباتهم وأطماعهم.

من هنا، يأتي الحجاب ليعمل كـ **"درع وقائي واجتماعي"** يقلل من فرص التعرض للأذى. الحجاب يرسل إشارة بصرية فورية وحاسمة لكل من يرى المرأة، مفادها:

"هذه المرأة تحيط نفسها بخصوصية صارمة، وليست متاحة للتقييم البصري أو العبث".

إنها فلسفة **التدابير الوقائية** التي نطبقها في كل تفاصيل حياتنا؛ فنحن نغلق الأبواب ليلًا لا لأننا نبرر للصوص فعلتهم، بل لأننا نـحمي ممتلكاتنا الغالية من النفوس الضعيفة.

وبالمثل، تظهر الدراسات الواقعية والإحصاءات الاجتماعية أن الحجاب واحتشام المظهر يساهمان بشكل ملحوظ في خفض نسب التحرش والمضايقات مقارنة بغيره.

فالزي المحتشم يفرض مسافة هيبة واحترام، ويقطع الطريق على أصحاب النفوس المريضة، ليكون الحجاب حصنًا خارجيًا للمرأة، تمامًا كما أن عفتها وإيمانها حصن داخلي لها.

المسؤولية المشتركة (غض البصر أولاً)

قد يتبادر إلى أذهان البعض أن الحجاب فُرض لأن الرجل معفى من ضبط نفسه، وهذا تصور يصححه النص القرآني بشكل حاسم. فاللافت أن الخطاب الإلهي بدأ بتوجيه الأمر للرجال قبل النساء:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [سورة النور:30].

الرجل في الإسلام مأمور أصالةً بغض البصر، وضبط الغريزة، وتحمل مسؤوليته الأخلاقية الكاملة في احترام المرأة وحمايتها.

الحجاب ليس وسيلة لإعفاء الرجل من المسؤولية، بل هو جزء من منظومة تشريعية متكاملة تتطلب انضباطًا من الطرفين لبناء مجتمع نظيف ومتوازن ومستقر.

الخلاصة

الحجاب ليس سجنًا للمرأة، بل هو رؤية مغايرة وأكثر عمقًا لمعنى الحرية.

الحرية في المنظور الإيماني ليست الانصياع لكل الرغبات المادية أو الخضوع لمعايير البشر، بل هي التحرر من عبودية المادة والارتقاء نـحو مراد الخالق.

ومن تؤمن بيقين أن الله هو خالقها، لا ترى في أوامره قيدًا يُكبلها، بل ترى فيها سياجًا من الرحمة يحمي كرامتها، ممن يعلم طبيعتها ونفسها أكثر مما تعلم هي عن نفسها.

قبل أن ننتقل للفصل القادم...

برأيك هل تعكس الممارسات الاجتماعية في مجتمعاتنا دائمًا حقيقة التشريع الإسلامي فيما يخص المرأة؟ وكيف تُميز بين جوهر تكريم الإسلام لها وبين العادات التي أُلبست ثوب الدين؟

الشبهة الثامنة

الرد على شبهة عدم ثبوت السنّة ودقة نقل الحديث



من أكثر الشبهات التي يثيرها المشككون حول السنة النبوية، قولهم:

"كيف نثق بالأحاديث النبوية وهي لم تُنقل مباشرة من النبي ﷺ إلينا، بل تناقلها الناس شفهيًا عبر أجيال طويلة؟ أليس من الطبيعي أن يقع فيها التحريف، أو الخطأ، أو الزيادة والنقصان مع مرور الزمن؟"

وقد تبدو هذه الشبهة منطقية للوهلة الأولى؛ فالبشر ينسون ويخطئون، والكلام المنقول شفهيًا قد يعتريه التبديل والتشويه مع تقادم العهود.

لكن هذا التصور يقوم على افتراض باطل وعارٍ عن الحقيقة؛ إذ يتخيل المشكك أن السنة النبوية انتقلت بطريقة شفهية عشوائية مرتجلة تشبه تناقل الحكايات الشعبية والشائعات، بينما الحقيقة التاريخية أن المسلمين أنشؤوا لنقل الحديث نظامًا بالغ الدقة والصرامة، يُعد من أضخم وأعظم أنظمة التوثيق إحكامًا في التاريخ البشري.

بل إن علماء الحديث لم يبنوا علومهم على حسن الظن المطلق بالرواة، وإنما انطلقوا من التسليم بإمكانية الخطأ والنسيان والكذب؛ ولذلك وضعوا منظومة كاملة لاختبار

الروايات وتمحيصها وكشف عللها قبل قبولها. ودعنا نفكك هذه المنظومة العلمية إلى أربعة براهين تفصيلية:

1. برهان العلنية والتطبيق (أفعالٌ تُرى لا أسرارٌ تُهمس)

يفترض المشككون أن الحديث كان عبارة عن جملة غامضة قالها النبي ﷺ لشخص واحد في مكان معزول، ثم ذهب هذا الشخص ليرويها لغيره. وهذا تصور خاطئ تمامًا؛ فحياة النبي ﷺ كانت كتابًا مفتوحًا، والسُّنة في معظمها هي تطبيق عملي علني عاينه آلاف البشر يوميًا.

فحين قال النبي ﷺ: «**صلّوا كما رأيتموني أصلّي**»[1]، لم يكن يعلّم رجلاً واحدًا في خفاء؛ بل كان يصلي إمامًا بآلاف الصحابة خمس مرات في اليوم، فيشاهدون قيامه وركوعه وسجوده.

وحين حجّ مع مائة ألف من أصحابه وقال لهم: «**لتأخذوا عني مناسككم**»[2]، كان الجميع يراقبون كل حركاته وسكناته.

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه أبو داود.

هذا النقل العملي المتكرر أمام مجتمع كامل جعل من المستحيل على أي شخص أن يخترع حكمًا أو يغير عبادة دون أن يواجهه آلاف الحفاظ قائلين له: "أخطأت، لم يكن النبي يفعل ذلك".

2. برهان المقارنة وتقاطع البيانات (الشبكة الضخمة وعلم التواتر)

في النقل الشفهي العادي، يمر الخبر عبر خيط فردي ضعيف (شخص إلى شخص واحد فقط)، فإذا أخطأ أحدهم أو نسي، انقطع حبل الحقيقة وتحرّف النص تلقائيًا. أما في السُّنة النبوية، فالنقل يمر عبر شبكة ضخمة متداخلة؛ فالحديث الواحد قد يسمعه خمسون صحابيًا، وينقلونه لمئات من التابعين، والتابعون ينقلونه لآلاف. فلو وهمَ راوٍ أو أخطأ في كلمة أو نسيها، جابهه بقية الحفاظ وصححوا له الخطأ وفضحوا وهمه فورًا.

ومن باب تقريب الصورة؛ ففي علم الجريمة الحديث، إذا أراد المحقق معرفة حقيقة حادثة ما، فإنه لا يكتفي بشاهد واحد، بل يجمع شهادات عشرة أشخاص كانوا في موقع

الحادث، ثم يقوم بعملية **تقاطع البيانات** (**Cross-Checking**)؛ فإذا اتفقت تفاصيل تسعة منهم على نقطة، واختلف العاشر، علم المحقق فورًا أن العاشر قد وهم أو أخطأ. هذا الضبط الأمني الدقيق هو عينه ما فعله علماء الحديث تحت اسم "**مقارنة المرويات**"، فالحديث الواحد لم يكن يمر عبر خيط فردي، بل عبر شبكة فاحصة تكشف الشاذ والمنكر.

ولتقريب مفهوم **التواتر** واليقين التاريخي الجازم الذي تنتجه هذه الشبكة الضخمة في عقولنا؛ اسأل نفسك سؤالاً بسيطًا:

كيف تتيقن اليوم بوجود مدينة تُدعى طوكيو في أقصى الأرض وأنت لم تزرها قط؟ وكيف تجزم بيقين مطلق بوقوع الحرب العالمية الثانية بكل مآسيها وتفاصيلها التاريخية مع أنك لم تعاصرها ولم تشهدها؟

الجواب العقلاني الفطري هو: **اليقين بالتواتر**.

لقد نُقلت إلينا هذه الجغرافيا وأحداث تلك الحرب عبر شبكة ضخمة مُمتدة من ملايين البشر، والوسائل، والكتب، والصحف، والبلدان المتفرقة التي تختلف لغاتهم

ومصالحهم، بحيث يستحيل في بديهة العقل والمنطق الرياضي أن يكون كل هؤلاء البشر قد اتفقوا وتواطؤوا معًا على اختراع مدينة وهمية اسمها طوكيو، أو تأليف حرب عالمية لا وجود لها!

هذا اليقين العقلي المبني على استحالة تواطؤ الشبكة الضخمة على الكذب أو الوهم هو عينه الحصانة العلمية والمنهجية الجبارة التي تمتاز بها مرويات السنة النبوية الشريفة (خاصة الأحاديث المتواترة).

3. برهان ميكروسكوب الرجال الصارم

في الوقت الذي كانت فيه الحضارات الأخرى تدون تاريخها بناءً على قصص مجاهيل لا يُعرف من هم، اشترط المسلمون السلسلة (الإسناد)، ووجهوا ميكروسكوبًا فاحصًا لحياة كل شخص يظهر في السلسلة عبر علم "**الجرح والتعديل**".

لم يكن المحدثون يكتفون بسؤال: "هل هذا الراوي مسلم؟"، بل كانوا يفتشون في عدالته (أمانته الأخلاقية) وفي ضبطه (قوة ذاكرته).

هذا الميكروسكوب كان في غاية الصرامة والدقة؛ فلو ثبت أن الراوي كذب كذبة واحدة في حياته العادية، أو سخر من الناس، أو كان سريع النسيان، أو اختلط عقله في كبره، يسقط حديثه فورًا ولا يُقبل في مصاف الصحيح.

4. برهان التدوين المبكر

هناك وهمٌ تاريخي كبير يروج له المشككون، وهو أن الأحاديث ظلت تائهة في الهواء شفهيًا لقرنين من الزمان حتى بدأت كتابتها. والحقيقة التاريخية الساطعة هي أن الكتابة رافقت الذاكرة منذ اليوم الأول.

لقد أذن النبي ﷺ لكثير من الصحابة بالكتابة؛ فكانت هناك "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو بن العاص، وصحيفة علي بن أبي طالب، وصحيفة أنس بن مالك. – رضي الله عنهم – وكان للتابعين صحف مكتوبة مثل صحيفة "همام بن منبه" التي أملاها عليه أبو هريرة رضي الله عنه (والتي طُبعت حديثًا ووُجدت مطابقة بنسبة 100% لما هو موجود في صحيح البخاري ومسند أحمد!).

فالقول بأن السُّنة كانت شفهية محضة هو جهل تاريخي فاضح، بل كانت الذاكرة العربية المذهلة مدعومة بالسطور المكتوبة منذ اللحظات الأولى لحياة الرسالة.

نظام رقابة الجودة الخماسي.. كيف يولد الحديث الصحيح؟

لكي يستوعب العقل حجم الدقة الفكرية، دعنا نتعرف على شروط رقابة الجودة الخمسة التي يجب أن تتوفر مجتمعة في أي حديث لكي يجرؤ العلماء على تسميته **حديثًا صحيحًا**. لو سقط شرط واحد من هذه الخمسة، يُطرح الحديث جانبًا...

1. **اتصال السند**: أن يكون كل راوٍ في السلسلة قد التقى بأستاذه وجهًا لوجه وسَمِع منه مباشرة، فلا يوجد انقطاع أو حلقة مفقودة.
2. **عدالة الرواة**: أن يكون كل راوٍ في السلسلة مسلمًا، بالغًا، عاقلاً، شديد التقوى، منزهًا عن خوارم المروءة، ولم يُعرف عنه كذب قط في حياته العادية.

3. **ضبط الرواة:** أن يمتلك كل راوٍ ذاكرة قوية (إن كان يروي من حفظه) أو كتابًا دقيقًا ومصانًا (إن كان يروي من كتابه)، بحيث يروي الكلام كما سمعه تمامًا دون تغيير.

4. **عدم الشذوذ:** ألا يخالف هذا الراوي (رغم ثقته وضبطه) من هو أوثق منه، أو يخالف مجموعة من الرواة الآخرين.

5. **عدم العلة:** وهو الشرط الأكثر عبقرية؛ والعلة هي سبب خفي غامض يكتشفه جهابذة المحدثين يقدح في صحة الحديث، رغم أن ظاهر الحديث يبدو سليمًا تمامًا (مثل المجهر الدقيق الذي يكتشف شرخًا خفيًا داخل جوهرة ثمينة).

شروط صحة الحديث



إذًا الحديث صحيح

(رسم توضيحي يمثل مسار تدقيق الحديث وتطبيق شروط القبول الخمسة)

وبناءً على هذه المصفاة الصارمة، صنف العلماء الأحاديث إلى درجات واضحة:

- **الحديث الصحيح**: وهو الحديث الذي وصل إلى أعلى معايير الجودة الفكرية والتاريخية؛ رواه عدلٌ تام الضبط، بسندٍ متصل، وخالٍ من أي علة أو شذوذ. هذا هو الكلام الذي نثق بيقين أن النبي ﷺ قاله.
- **الحديث الحسن (المقبول)**: وهو كالحديث الصحيح تمامًا، لكن أحد رواته أقل ضبطًا وحفظًا بقليل من رواة الصحيح، ومع ذلك يُقبل ويُعمل به لأن عدالته وصدقه ثابتان عيانًا.
- **الحديث الضعيف (تحت الملاحظة)**: وهو الحديث الذي فقد شرطًا من شروط الصحة (كأن يكون في السند راوٍ معروف بضعف الذاكرة, أو سقط اسم راوٍ من السلسلة). هذا الحديث لا نبني عليه عقيدة، ولا نأخذ منه حكمًا شرعيًا حلالاً أو حرامًا.

الحديث الموضوع (المرفوض تمامًا): وهو الحديث "المكذوب". وهنا تظهر المعجزة الفكرية والأمانة العلمية

للمحدثين؛ فهم لم يحرقوا هذه الأحاديث أو يخبئوها، بل جمعوها في كتب مستقلة وأشاروا إليها بالبنان قائلين للناس: "احذروا.. هذه أحاديث كذبها الكذابون على رسول اللّه، وقد فحصناها وكشفناهم!".

الخلاصة:

إن إلقاء الشبهات حول دقة نقل السنة النبوية هو طعنٌ في العقل البشري أولاً.

فمن أراد أن يشكك في الأحاديث الصحيحة بعد كل هذا نظام التوثيقي الجبار، فعليه من باب أولى أن يشطب على التاريخ البشري كله.

لأنه لا يوجد حدثٌ تاريخي واحد، ولا قائد، ولا فيلسوف حُفظت كلماته وتفاصيل حياته بنصف الدقة والصرامة والميكروسكوب العلمي الذي حُفظت بها سنة النبي ﷺ.

تأثير هذه المعرفة على يقينك: حين تدرك هذا التقسيم البديع، ستكتشف زيف الخدعة الفكرية التي يمارسها المشككون؛ فمعظم الشبهات التي يثيرونها بناءً على **نصوص صادمة** أو **قصص غريبة**، تذوب وتتلاشى فورًا بمجرد أن نسألهم السؤال العلمي الأول:

"ما درجة هذا الحديث في مصفاة المحدثين؟".

فإذا كان ضعيفًا أو موضوعًا، سقطت الشبهة تلقائيًا، وعلمنا أن نظام الجودة عند علماء الإسلام قد فرزه وطرحه خارجًا منذ أكثر من ألف عام، مخلفًا لنا نبعًا صافيًا يبنى عليه اليقين وتطمئن به القلوب.

الفصل العاشر

رحلة الروح.. كيف نعيش اليقين؟



من اقتناع العقل إلى سكينة القلب...

بعد أن قطعنا معًا رحلة اليقين، وتأملنا الأدلة التي تثبت صدق الإسلام، وامتلأ القلب يقينًا و توحيدًا ورضًا بالله ..

نصل الآن إلى المحطة الأخيرة في رحلتنا و هي

محطة الانتقال من معرفة الله... إلى العيش مع الله.

فثمة فرقٌ بين أن تعرف الحقيقة، وبين أن تستريح بها.

فقد يمتلك الإنسان اليقين في عقله، لكنه يظل متعبًا، قلقًا، أو حائرًا أمام تقلبات الحياة.

لذا، فإن هدفنا هنا ليس البحث عن أدلة جديدة، بل البحث عن مفاتيح الطمأنينة؛ عن تعلم كيفية الانتقال من الإقرار بالحق، إلى تذوق برده في ثنايا الروح، ومن المعرفةِ بالله، إلى العيشِ مع الله.

والآن، نخطو معًا نـحو أولى مَحطات الطمأنينة:

أولاً: تدرّع باليقين في مواجهة عواصف الحياة

الحياة لا تخلو من الابتلاءات. أيام تشتد فيها الرياح، وتضيق فيها النفس، وتتزاحم الأسئلة في القلب: لماذا حدث هذا؟ لماذا تأخر الفرج؟ وهنا تأتي التوصية الأولى وهي:

أن تجعل من عقلك حارسًا على قلبك..

كلما باغتتك الأسئلة في لحظة الألم، ذكّر نفسك فورًا بما استيقنتَ منه في وقت الرخاء.

صاحب اليقين لا يعني أنه لا يتألم... لكنه لا ينهار.

يبكي... لكنه لا يعترض.

يتعب... لكنه لا يفقد الثقة في الله.

تضيق به الدنيا... لكنه يعلم أن خلف التدبير ربًا رحيمًا لا ينساه. اجعل يقينك يشبه مظلة في قلب العاصفة؛ قد تسمع صوت المطر، وقد تشتد الرياح من حولك، لكن في الداخل احتفظ بشيء ثابت... شيء يقول لك: "إن الله يدبر الأمْر فلا تقلق".

تأمل قصة موسى والخضر، لتتذكر أن وراء كل أمرٍ بدا مؤلمًا حكمة لم تكن ظاهرة في البداية. فكم من باب أُغلق، وكان في إغلاقه النجاة، وكم من تأخير أوجع القلب، وكان في طياته الرحمة.

ثانيًا: ارتقِ بعبادتك من "تكليف" إلى "لقاء"

حين يغيب حضور القلب، تفرغ العبادة من روحها، لتبدو مجرد أفعال متكررة نؤديها بدافع العادة.

وخطوتك التالية هي أن تقترب بحب؛ تمنح نفسك دقائق من السكون في رحاب الطاعة لتستشعر مَن تقابل، لتتحول العبادة عندك من مجرد تأدية واجب إلى ملجأ وملاذ لروحك لا غنى عنه.

اجعل صلاتك هي موعد اللقاء الحقيقي؛ ليست مجرد ركعات تؤدى، بل لحظة يعود فيها القلب إلى موطنه. حين تقول: **(الله أكبر)**... اعلَن بقلبك أن همومك أصغر، وأن مخاوفك أصغر، وأن كل ما أثقلك أصغر.

وفي السجود تحديدًا... دع قلبك يشعر أنه عاد إلى المكان الذي يحتويه؛ مكان لا تحتاج فيه إلى شرح ألمك... لأن الله يعلمه قبل أن تنطق به.

الذكر والدعاء...

الذكر والدعاء من أعظم ثمار اليقين، ففي رِحابِهما لا يشعر الإنسان بالوحدة أبدًا.

حتى لو خلا به الطريق. فهو يعلم أن هناك ربًا يسمع الهمس، ويرى الدمعة..

ويعلم ما لم يستطع اللسان التعبير عنه.

فحين يقول المؤمن: **"يا رب"...**

هو لا ينادي فراغًا.

بل ينادي السميع القريب.

وهنا يتحول الدعاء من كلمات...

إلى أمان و طمأنينة وسكينة.

ثالثًا: تذوّق الإيمان في تفاصيل يومك "ليطمئن قلبك"

الخطوة العملية هنا هي:

ألا تكتفي بأن **تعرف** بل أن **تذوق**.

أن تستشعر معية اللّه في أدق تفاصيل يومك:

في رزق جاءك في وقته..

في بلاء صرفه اللّه عنك ولم تنتبه له..

في دعوة تأخر جوابها ثم اكتشفت أن التوقيت الإلهي كان أجمل بكثير من اختيارك.

حين تصل إلى هذا المقام وتطبق هذه الخطوة**...**

لن تعود ترى حياتك كأحداث منفصلة..

بل سترى في كل تفصيل منها ألطاف اللّه المنسوجة لك.

الخلاصة: (حين يسكن اليقين القلب)

إذا كان العقل قد أوصلك إلى باب الإيمان... فإن القلب هو الذي يدخل.

واليقين الحقيقي ليس أن تعرف أن اللّه موجود فقط...

بل أن تعيش مستشعرًا وجوده ومعيّته في كل لحظة."

أن تخاف... فتتذكره.

أن تسقط... فتعود إليه.

أن تُحرم... فتثق بحكمته.

أن تُرزق... فتشكره.

هنا لا تصبح "لا إله إلا اللّه" مجرد كلمة تُقال...

بل تصبح وطنًا يعود إليه القلب كلما أتعبته الحياة.

الخاتمة

إذا وصلتَ إلى هذه الصفحة، فأنت لم تُكمل مجرد كتاب...

بل ربما قطعت رحلةً داخل نفسك.

رحلة بدأت بسؤال بسيط:

"هل لهذا الكون خالق؟"

ثم أخذتك خطوةً بعد خطوة؛ من تأمل الكون، إلى اكتشاف صفات الخالق، إلى البحث عن رسالته، حتى وصلت إلى إدراك أن الإسلام ليس ميراثًا اجتماعيًا نـحمله، ولا هويةً نكتبها في الأوراق الرسمية...

بل هو الحقيقة التي يصمد أمامها العقل، وتطمئن إليها الفطرة، ويستريح فيها القلب.

لقد كان هدف هذا الكتاب ألا يعطيك إجابات فحسب...

بل أن يمنحك **جذورًا**.

جذورًا تجعلك ثابتًا إذا هبت رياح الشبهات.

مطمئنًا إذا ازدحمت الفتن.

وعزيزًا بدينك في زمن يعتذر فيه كثيرون عن هويتهم.

و في الختام إن خرجت من هذا الكتاب بقلبٍ أقرب إلى اللّه،

وعقلٍ أكثر طمأنينة، ونفسٍ أشد تمسكًا بالإسلام...

فالحمد للّه وحده فقد حققت هذه الرحلة غايتها.

فامضِ في طريقك...

واعبد اللّه... كأنك تراه.

******

تم بحمد الله

حقوق النشر والطبع والإتاحة

لكتاب: مسلم يبحث عن اليقين

تأليف: أسماء موسى.

تاريخ الإصدار: يونيو 2026

رقم الترقيم الدولي (ISBN) : 978-625-90433-8-8

مسلم يبحث عن اليقين

في زمنٍ أصبحت فيه الشبهات تقتحم هدوء غرفنا عبر شاشات الهواتف .. لم يعد الإيمان الموروث وحده كافيًا !

لذا سيأخذك هذا الكتاب في رحلةٍ للتحوّل من كونك (مسلمًا بالوراثة) إلى (مسلمٍ موقنٍ بعقيدته بعقله وقلبه)

رحلةٌ تجيب عن تلك الأسئلة المقلقة التي قد تخطر ببالك وتخشى البوح بها . لتصنع من فضولك طريقاً نحو ثبات الإيمان وراحة القلب.